سيد غابات الشمال

الشهيد ميرزا كوجك خان

كمال السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

سيد غابات الشمال
الشهيد ميرزا كوجك خان

تأليف: كمال السيّد
تدقيق وتصحيح: د. الشيخ حسين اليوسف
الطبعة: الخامسة، ٢٠٢٥م

إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر
البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com
جميع حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة كلمات

ISBN 978-614-464-283-2

kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

الفهرس

الإهداء	٧
المدخل	٩
إيران.. المشهد السياسي	١٤
المشروطة.. البحث عن هوّية	١٨
تقاسم النفوذ.. احتواء المشروطة	٢٣
الاختراق الإنكليزي	٢٨
العدوان الروسي	٣١
الحرب العالمية	٣٥
اتفاقية ١٩١٩	٣٧

الفصل الأول: ١٩١٤ ـ ١٩١٧

ميلاد رجل	٤١
گيلان.. غابات ومطر	٤٦
كانوا سبعة عشر!	٤٩
دروب الثورة	٥٢
الغابة.. أعراس ومآتم	٥٢

القوّة والاستقامة ٥٤
وهزيمة لبيدق آخر ٥٤
نسيم الحرّية ٥٦
الطريق الدامي ٥٨
موقف الغابة من الصراع العالمي ٦٢

الفصل الثاني: ١٩١٧ ـ ١٩١٩

ثورة أكتوبر الكبرى ٦٥
الطريق إلى آبار البترول ٦٧
الهدنة ٧١
وثوق الدولة ٧٤
الانفجار الداخلي ٧٦
معاهدة لبيع إيران! ٧٩
مصالحة مع الحكومة ٨١

الفصل الثالث: ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

منافقو القرن العشرين ٨٧
موقف الغابة ٨٩
رسالة من لنكران ٩١
الاجتياح الأحمر ٩٣
لقاء في أنزلي.. حربة النفاق الدولي ٩٦
ميلاد الجمهورية ٩٩
تيار النفاق الشيوعي ١٠١
الانقلاب الأحمر ١٠٢
مؤتمر الشرق ١٠٤
عاصفة الأحداث ١٠٥
لينين يصافح الإنكليز ١٠٨

الفصل الرابع: ١٩٢٠ ـ ١٩٢١

مصرع ثورة	١١٣
الاستقطاب.. محنة الإسلام المقاوم	١١٤
التعهد السوفيتي.. شعارات ثورية تحت الأقدام	١٢٠
موقف كوجك خان	١٢١
خريف الثورة	١٢٢
قرار الحسم	١٢٣
حادثة ٢٦ محرّم ١٣٤٠ هـ	١٢٥
الانفجار الأخير.. شظايا الانطفاء	١٢٦
مفاوضات مع وزير الحرب	١٢٨
الخريف.. فصل الرحيل	١٣١
رسالة للتاريخ.. والأجيال	١٣٢
اللقاء الأخير	١٣٣
الطريق الصعب	١٣٤
مشهد من كربلاء	١٣٨
الثورة في صور	١٤٢

إلى الثوّار فقط

أقدّم: «سيّد غابات الشمال»

تجربة في الثورة..

ونموذجاً في الاستقامة على الطريق..

طريق المقاومة الطويل..

كمال السيد

المدخل

يمكن تسمية الفترة بين نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بالحقبة الإنكليزية في العالم؛ فخلال تلك المدّة تمكن البريطانيون من بسط نفوذهم امتلاكاً وهيمنة على مساحات شاسعة بلغت حوالي ٣٤,٠٠٠,٠٠٠ كم٢ يسكنها ٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ إنسان، وقد بدأ الإنكليز بسط نفوذهم في الساحل الجنوبي من إيران، ثم بدأت سفارتهم ومفوضياتهم في تعميق هذا النفوذ باستمرار.

وفي الشمال الإيراني كان الدبّ الروسي يمضي قدماً في قضم الأرض الإسلامية والإيرانية باتجاه الجنوب، فخسرت إيران مساحات مترامية في القفقاز في فترات وجيزة؛ فيما كان ملوك وزعماء البلاد لا ينفكون في توقيع المعاهدات المذلّة، فجاءت معاهدة گلستان[1] في ١٨٢٦، وأعقبتها اتفاقية «تركمن چاى»[2]

---

١. جاءت معاهدة گلستان بعد حرب خاضتها إيران ضد روسيا القيصرية استمرت تسع سنوات، وانتهت بهزيمة إيران عسكرياً في قرية «گلستان» في ضواحي قره باغ في ٢٩ شوّال ١٢٨٨هـ ـ ١٢ أكتوبر ١٨١٣م، وقد وقع المعاهدة نيكولاي ريدتشوف ممثلاً عن القيصر والميرزا أبو الحسن خان الشيرازي ممثلاً عن فتح علي شاه ملك إيران.
وقد جاء في البند الخامس من المعاهدة أنه لا يحق لأية سفينة حربية عدا السفن الروسية أن تمخر مياه بحر الخزر! - مطالعات آسياي مركزي وقفقاز - السنة الأولى العدد الثاني ص ٢٥٩.

٢. معاهدة تركمن چاي: نسخت هذه المعاهدةُ معاهدةَ گلستان بعد ١٥ سنة إثر حرب ثانية استمرت ١٨ شهراً، وانتهت بهزيمة إيران أيضاً وسقوط تبريز وبعض المدن الأذربيجانية في

بعد خمسة عشر عاماً إثر حرب استمرت عامين احتلت فيها القوات الروسية مناطق إضافية، وواصلت تقدّمها باتجاه تبريز التي سقطت مع بعض المدن الأذربيجانية الأخرى.

ومن ذلك الوقت، فرض الروس سطوتهم وبسطوا نفوذهم في إيران بقوّة، وكانوا يشاركون الشاه وربّما يسيّرونه في كثير من الأحيان في إدارة البلاد.

وكان من الطبيعي أن يحتدم الصراع بين الدب والأسد حول إيران والذي أخذ بالتفاقم بشدّة ولم يهدأ إلاّ في حلول سنة ١٩٠٧م؛ حيث أعلنت الإمبراطوريتان عن اتفاقهما على (تقسيم إيران إلى ثلاث مناطق؛ منطقة الشمال للنفوذ الروسي، ومنطقة الجنوب الغربي للنفوذ البريطاني، ومنطقة محايدة في الوسط حيث تدخل طهران العاصمة فيها).

وفي خضمّ الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وما أعقبها من نتائج، سعت بريطانيا إلى دفع إيران باتجاه الغرب، وكانت خططها تُكلل بالنجاح في تركيا

فقدمت «أتاتورك» مثلاً كبطل قومي، وراحت تبحث عن بطلها القومي في إيران، وسرعان ما عثرت عليه في فوج «القوزاق»، وفي شخصية ضابط الصف الأمّي رضا ميرپنج[1].

وفي تلك الحقبة العاصفة، ظهر الثائر ميرزا كوچك خان الذي بلورت ضميره

قبضة الجيوش الروسية، وقد قام السير ماكدونالد الوزير المفوض الإنكليزي بوساطة بين الدولتين، وتم توقيع معاهدة تركمن چاي (قرية في ضواحي تبريز) في ١٠ شباط ١٨٢٨، وقد تنازلت إيران وفقها عن أراض واسعة شملت نخجوان وإيروان (يرفان)، وأرغمت إيران على دفع الخسائر الحربية لروسيا. وخارج المعاهدة تمكنت روسيا أيضاً من احتلال جزيرة أشغارده وبعض الجزر الصغيرة الأخرى، وقد وافقت إيران أيضاً على هذا الاحتلال! - مطالعات آسياى مركزي ٢ - ٢٦٠.

ومنذ ذلك الوقت تعاظم الدور الروسي في إيران خاصّة في الشمال.

١. رضا خان بهلوي فيما بعد.

الحوادث السياسية والتغيرات الاجتماعية العاصفة منذ صيحة جمال الدين الأفغاني[1]، فقد ولد الثائر الإيراني ١٨٧٧ م واستشهد سنة ١٩٢١، وأمضى نصف عمره

---

١. ولد موقظ الشرق عام ١٨٣٩، وشهد فاجعة سقوط الحكم البابري في الهند وسيطرة الإنكليز على مقدرات دولة مترامية الأطراف وذلك سنة ١٨٥٧م.
وتضاربت الآراء حول مسقط رأسه وإن كان المشهور أنه من أفغانستان، ولكن أدلة عديدة تؤكد ميلاده في أسد أباد في همدان.
درس في بدايات حياته العلمية في مدينة النجف الأشرف في الفترة ما بين ١٨٥٠ وحتى سنة ١٨٦٤، وغادرها متوجهاً إلى طهران بعد وفاة أستاذه الشيخ مرتضى الأنصاري، ومنها إلى خراسان فأفغانستان في نفس العام.
وتزامن وصوله مع الصراع المصيري بين جناحين في القصر؛ جناح تسانده بريطانيا، وآخر تدعمه روسيا، وقد وقف جمال الدين إلى جانب الأخير، وقد انتهى الصراع بانتصار شير علي خان الذي يمثل الجناح البريطاني. وذلك بعد ثلاثة أعوام، وعندها غادر جمال الدين أفغانستان إلى الهند سنة ١٨٦٨، ولكن الإنجليز اضطروه لمغادرتها أيضاً، فولّى شطره صوب مصر فوصلها سنة ١٨٦٩.
وفي تلك الفترة ظهر الأفغاني كثائر يناصب الاستعمار الإنكليزي العداء والحرب.
ولم يقف الإنكليز مكتوفي الأيدي إزاء السيد جمال الدين؛ بل راحوا يحركون من وراء الستار بعض من يشكك في دعوة الأفغاني الإصلاحية، إلى جانب محاولات عديدة في كسبه إلى هذا الطرف أو ذاك، ولكنه ظل وفيّاً لمبادئه في عصر لم يتفهّم آراءه وأفكاره، ولهذا كان يعاني الأمَرّين ويحسّ وطأة المستعمر الذي استغفل البلاد الإسلامية.
عانى الأفغاني منذ سنة ١٨٦٩م وحتى رحيله في سنة ١٨٩٧م أصناف العذاب وقضى حياته أشبه ما يكون بالمشرّدين، فالقلوب معه والسيوف تستلُّ عليه في كل مكان.
لم تمرّ على وصوله مصر سوى فترة وجيزة حتى غادرها إلى الآستانة بعد موقف الأزهر السلبي إزاءه.
ولكنه عاد إلى مصر مرّة أخرى عام ١٨٧١ بأمر من السلطان العثماني الذي توجس خيفة من نفوذه وتأثيره، وظل في القاهرة حتى سنة ١٨٧٩م، وتُعدّ هذه الفترة من أخصب فترات جمال الدين الفكرية وفيها تبلور اتجاهه الثوري في الإصلاح والتجديد.
وفي ذلك العام تحرك المستعمر الإنكليزي المهيمن على مصر، فأصدر الخديوي أوامره بنفيه إلى الهند، وطوال ثلاثة أعوام عاش الأفغاني في غربة الإنسان الذي أصبح مصيره بيد عدوّه.
وفي عام ١٨٨٣م، وصل باريس وذلك بعد إخفاق ثورة «عرابي» في مصر، فأصدر في العاصمة

القصير في الجهاد والمقاومة.

ولقد ظلّت ثورة الغابة بعيدة عن الضمير العربي إلى أن هوى قائدها وسط الثلوج في مرتفعات «خلخال»[1].

ومن المؤسف جـدّاً أنّ القارئ العربي يعرف الكثير عن «جيفارا»[2]

الفرنسية وبالتعاون مع تلميذه محمد عبدة جريدة العروة الوثقى التي كانت تصدر أسبوعياً.
وما لبث الخلاف بين الأستاذ وتلميذه أن تعمق بسبب اختلاف الرؤية في وسائل الإصلاح.
غادر باريس إلى إيران في آخريات سنة ١٨٨٥م، ثم استأذن الشاه ناصر الدين في السفر إلى روسيا بعد تكهرب الأجواء في إيران بسبب أفكاره التي وجدت لها آذاناً تصغي وقلوباً تعي، ومكث في العاصمة الروسية «بطرسبرغ» أربع سنوات ليلتقي مرّة أخرى ملك إيران في ميونيخ بألمانيا، فدعاه الأخير للعودة إلى إيران فوصلها سنة ١٨٨٩م.
وتفجّر الخلاف بينه وبين الشاه بسبب حركته الإصلاحية، فقرر السيد جمال الدين اللجوء إلى مرقد السيد عبد العظيم في جنوب طهران معلناً عداءه لناصر الدين شاه وسياسته الاستبدادية، وألقي القبض عليه بعد اقتحام المرقد ليقاد وفي ظروف مريرة إلى الحدود العراقية في شتاء سنة ١٨٩٣م.
وكانت الآستانة محطته الأخيرة إذ وصلها في نفس العام.
وما لبث ناصر الدين شاه أن سقط صريعاً برصاصات أطلقها عليه أحد تلامذة الأفغاني، وقد أظهر الأخير ابتهاجه بسقوط علَم من أعلام الاستبداد الأمر الذي أثار مخاوف السلطان عبد الحميد، فظلّ يعيش تحت رقابة شديدة حتى توفي في ظروف غامضة في آذار سنة ١٨٩٧م.

١. منطقة جبلية تقع في الغرب من محافظة گيلان، وهي من مدن أذربيجان الشرقية التي تمتاز بشتائها القارس.

٢. ولد في الأرجنتين ١٩٢٨، وتخرج في عاصمتها طبيباً ١٩٥٣م. انتقل إلى بيرو لممارسة مهنته كطبيب، تجول في أميركا اللاتينية على دراجة هوائية وصادف مروره في غواتيمالا عام ١٩٥٤م مع سقوط نظام حكم جاكو آرينز.
انتقل إلى المكسيك عام ١٩٥٥ وتعرف هناك على كاسترو، وكانت بداية لصداقة وطيدة.
انضمّ إلى رجال الثورة الكوبية، وكان أول الداخلين لها فاتحاً عام ١٩٥٩. تولى مناصب حكومية ثم فوجئ العالم برسالته التي قرأها الرئيس كاسترو وهو يودع الشعب الكوبي وأسرته أيضاً معلناً أن مهمته كثائر لم تنته.
واختفى غيفارا سنوات ليظهر في بوليفيا قائداً لمعارك ضد النظام المدعوم من أمريكا. حقق

و«زاباتا»[1]، ويقف مستفهماً أمام ميرزا كوچك خان، وثورة الغابة، التي تعدّ في الواقع ملحمة إنسانية في الجهاد الإسلامي.

وفي رأيي أنه قد آن الأوان لعبور هذه الشخصية المجاهدة حدود «گيلان»[2] وإيران لتأخذ مكانها في الضمير الإنساني، وسيتعرّف القارئ العربي ولأول مرّة

في البداية بعض الانتصارات، ولكنه ما لبث أن وقع في كمين سنة ١٩٦٧ وأسر من قبل الجنود البوليفيين، وتمت تصفيته بإيعاز من المخابرات الأميركية الـ CIA، وكان لمصرعه دويٌّ كبير في العالم.

كان غيفارا ثائراً إنسانياً حرّاً، ولهذا تحول إلى أسطورة عالمية، وأصبحت تجربته مصدر إلهام ثوري في القرن العشرين.

ومع هذا فقد اختلفت النظرة إليه باختلاف أخلاقيات الناظرين، فهو مغامر رومانسي بالنسبة للبعض، وقاطع طريق لدى البعض الآخر، ومقاتل بطل بالنسبة لفريق ثالث.

يعتقد غيفارا بتجاوز أنانية «الحدود»، وأنانية القضايا القومية، وتبقى القضية المقدّسة هي قضية «افتداء الإنسانية» ضد الولايات المتحدة الأمريكية عدوة الجنس البشري.

«فكل قطرة دم تراق في ظل عَلَم غير العَلَم الذي ولدنا تحت ظله هي تجربة مفيدة لكل أمريكي (أمريكا اللاتينية) وأفريقي وآسيوي ولكل أوربي أيضاً».

لهذا فإن غيفارا كان ينتظر الموت ويستقبله كتضحية عليا.

أبدى غيفارا تحفظه إزاء الصراع السوفيتي الصيني، ولم يتحفظ في إبداء انتقاده لسياسة الاتحاد السوفيتي الشوفينية خاصّة في تعامله مع دول العالم الثالث.

رفع جيفارا فكرة «البؤرة الثورية» أو «البؤرة الفدائية»؛ حيث يتحمل الإنسان كفرد دوره التاريخي في التغيير، مؤكداً على التوحد العضوي بين السياسي والعسكري في قيادة الثورة أو الحركة الفدائية، حيث البندقية لا تقود التجمع السياسي، والسياسي لا يوجّه فوهات البنادق.

١. زاباتا إميليانو ١٨٧٧ ـ ١٩١٩ Zapto Emiliano؛ ثوري مكسيكي عمل طويلاً ضد التسلط الديكتاتوري العسكري الذي توالى على المكسيك في فترة حياته.

وقد لجأ إلى الثورة للسيطرة على منطقة موريلوس والقضاء على الإقطاع وتوزيع الأراضي على الفلاحين.

كذلك أنشأ في تلك المنطقة المدارس والخدمات الاجتماعية، فذاع صيته والتفت الجماهير الفلاحية حوله؛ إلاّ أن قوّات الحكومة تمكنت من نصب كمين له وقتله في نيسان أبريل ١٩١٩م.

٢. گيلان من محافظات الشمال الإيراني؛ حيث ولد ميرزا كوچك خان وانطلقت ثورته.

على تلك الجذوة المضيئة في غابات الشمال الإيراني، والتي ظلّت تتوهج مدّة سبعة أعوام في ظروف عالمية عاصفة.

إيران.. المشهد السياسي

ها هي كلمات الأفغاني جمال الدين، تسافر في الأرض الإسلامية، فتوقظ الضمائر وتهَب النفوس الأمل. ما يزال جمال الدين يقاوم المدّ الإنكليزي في الشرق النائم.. في أفغانستان والهند ومصر والسودان وفي إيران.. وفي كل الأرض الإسلامية الممتدة من «طنجة إلى جاكرتا».

ولم يكن جمال الدين ابن إقليم أو بقعة ما، لقد كان ابن الإسلام، والرجل الذي هزّت كلماته الغاضبة كل الأشياء..

وقف وحيداً في مواجهة بريطانيا (العظمى).. بريطانيا التي تنوي تحسطيم الإسلام..

إن صيحة جمال الدين ولا شك هي وراء كل مشروع نهضوي في الشرق المسلم. ومن هنا جاءت حركة «هيئت اتحاد إسلام» التي أسسها جمع من علماء الدين ورجال السياسة ومنهم ميرزا كوچك خان، ولم تكن هذه الحركة سوى استجابة لصيحة جمال الدين[1].

ويبد ومن خلال استقصاء تاريخي سريع أن النفوذ الأجنبي وخاصة الإنكليزي أولاً ثم الروسي، لم يكن ليواجه مصاعب حقيقية في التغلغل، فعندما كان الروس يقضمون الأرض الإيرانية باتجاه تبريز وخراسان، كان البريطانيون يعمّقون نفوذهم في طهران مستفيدين من سطوتهم في الجنوب الإيراني على امتداد السواحل.

ولعلّ أول مواجهة حقيقية حصلت بين الوجود الأجنبي والإرادة الشعبية

١. اسناد نهضت جنگل (بالفارسية) (الوثائق والتقارير السرّية) - ٢٣ المقدّمة.

هي ثورة «التنباكو»، التي جاءت إثر منح «ناصر الدين شاه»[1] الميجر تاليوت البريطاني امتيازاً في حق استثمار التبغ مدة خمسين سنة مقابل ١٥,٠٠٠ جنيه استرليني و٢٥% من أرباح الشركة الإنكليزية سنوياً.

وبالرغم من أن فتوى المرجع الكبير محمد حسن الشيرازي[2]، والتي

---

١. حكَم ناصر الدين شاه إيران من سنة (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦)م، كان همّه جمع المال عن طريق بيع حقوق الاستثمار للأوربيين.
وقّع أثناء زيارته بريطانية، وبتشجيع من الإنكليز، اتفاقية لاحتكار حقول التبغ وأسواقها مدّة خمسين سنة والتي أثارت غضب الشعب.

٢. ولد السيد محمد حسن الشيرازي في شيراز في نيسان ١٨١٥م، فقد والده في السنين الأولى من طفولته فرعاه خاله.
درس العلوم الدينية في مسقط رأسه، ثم سافر إلى أصفهان سنة ١٨٣٣ ودرس على أيدي أساتذتها، ثم غادرها إلى النجف في سنة ١٨٤٣، فتتلمذ على يد الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ حسن آل كاشف الغطاء ونال درجة الاجتهاد.
وكان من أنبغ تلامذة الشيخ مرتضى الأنصاري، وقد لازمه مدّة ٢٢ عاماً؛ أي حتى وفاة الأنصاري سنة ١٨٦٤م، وهي السنة التي تسنّم فيها المرجعية التي وجد نفسه مضطراً لتحمّل مسؤوليتها بعينين تفيضان دمعاً.
رفض استقبال ناصر الدين شاه في زيارة الأخير للنجف سنة ١٨٧٠م، وتأزم الموقف ليأتي الحلّ الأمثل في اللقاء في ظلال مرقد الإمام علي، وأصبح هذا الحلّ تقليداً للقاء العلماء والملوك من الذين يأبى زيارة أحدهما الآخر.
وفي سنة ١٨٧٤، جاءت خطوته المفاجئة في هجرته إلى سامراء حيث مرقد الإمامين العاشر والحادي عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام.
وقد تحسنت الحياة في تلك المدينة وشهدت نهضة عمرانية وانتعاشاً في الحالة الاقتصادية، وجاءت الفترة بين سنة ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ ليصبح الشيرازي قائداً عالمياً! وذلك عندما انفجرت أزمة «التنباكو» بين الشعب الإيراني من جهة وناصر الدين شاه والشركة الإنكليزية من جهة أخرى.
وفي ٢٣ شباط ١٨٩١ صدرت فتواه المشهورة التي فجرّت ثورة فريدة في تاريخ إيران أجبرت الشاه على التراجع، والشركة الإنكليزية على الرحيل ومغادرة إيران.
وفي عام ١٨٩٣، حاول الإنكليز تفجير فتنة طائفية عندما رمى أحدهم الإمام الشيرازي بحجر وهو يجتاز أحد الأزقة، فتوجه القنصل البريطاني في بغداد إلى سامراء، وأبدى استعداد بريطانيا العظمى في اتخاذ الإجراءات في هذا الأمر.

تلخصت في كلمات معدودة[1]، قد حسمت المواجهة لصالح الشعب المقهور؛ إلاّ أنها جاءت بعد جهود مخلصة ومستمرة وقف في طليعتها السيد جمال الدين؛ كما يبدو ذلك من رسالته المطولة[2].

وقد اضطر ناصر الدين شاه إلى إلغاء الامتياز فيما راحت بريطانيا تنظر بعين الحقد لعلماء الإسلام.

وقد ظل عام ١٨٩١م ١٣٠٨هـ نقطة مضيئة وملهمة للأحرار، وما لبث ناصر الدين شاه أن سقط صريعاً إثر رصاصات أطلقها أحد تلامذة السيد جمال الدين، وذلك سنة ١٨٩٦م، لتنتهي بذلك حقبة سوداء امتدت نصف قرن من الزمن.

وفي عام ١٨٩٥، توفي السيد الشيرازي الذي وجّه ضربة مدمّرة للمصالح والسياسة البريطانية في إيران. وفي عام ١٨٩٨ توفي وفي ظروف غامضة موقظ الشرق السيد جمال الدين[3].

ثم يأتي انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال في سويسرا في نفس العام ليدخل ضمن أضواء المسرح السياسي.

غير أن الشيرازي ردّ قائلاً: «إن الحادث كان مجرد عمل صبياني.. ولا حاجة لأن تدسّ بريطانيا أنفها فيما لا يعنيها من الأمور».

توفي الإمام الشيرازي في العشرين من شباط ١٨٩٥ في سامراء، ودفن في النجف الأشرف بعد تشييع طويل امتد بين المدينتين.

١. نص الفتوى: «بسم الله الرحمن الرحيم.. استعمال التنباك والتتن اليوم حرام بأي نحو كان وبمنزله محاربة إمام الزمان..» حرّره الأحقر محمد حسن الحسيني.

٢. موسوعة العتبات المقدسة مجلّد مدينة سامراء، جعفر الخليلي، أعيان الشيعة - محسن الأمين ٤ - ٢١٥.

٣. تتحدث بعض المصادر عن النهاية الغامضة التي وضعت حدّاً لحياة الأفغاني، يعزو بعضها إلى تآمر شيخ الإسلام أبو الهدى الصيادي، وبعضها إلى خشية عبد الحميد الذي دس إليه السم «فرهنگ معين» الموسوعة الإيرانية، مجلة العربي الكويتية، العدد ٥٢.

إننا نذكر ذلك؛ لأن هذه الحوادث قد أسهمت في بلورة وعي ميرزا كوچك خان الذي ولد سنة ١٨٧٧م ١٢٩٨هـ، إنه الآن في مدينة رَشت يدرس العلوم الدينية، وربّما في طريقه إلى طهران لاستكمال دراسته في العاصمة التي تشهد تحولات اجتماعية وسياسية مصيرية.

لقد اختفى عدوّ الإنكليز اللدود، لم يعد يراه أحد أو يسمعه أحد، ولكن كلماته النافذة تتحول إلى بذور وجدت لها هنا وهناك تربة طيّبة لتنبت وتشتد وتؤتي أكلها ولو بعد حين.

لقد هزّ جمال الدين بدعوته إلى الثورة ثوابت القرون الماضية في فكرة الانتظار التي يؤمن بها العالم الشيعي؛ حتى إننا نجد حركة «السربداران»[1] ونجاحها في إقامة دولة مجرّد مقطع زمني عابر وفي مساحة جغرافية محدودة.

فالواقع الديني الذي عايشه جمال الدين يرفض إلى حدّ ما فكرة الثورة وقيادة

---

١. سلالة شيعية استولت على الحكم في خراسان بعد معارك دامية مع المغول، حكمت ما يقرب من خمسين سنة من عام ٧٣٨هـ وحتى عام ٧٨٣هـ؛ حيث انهارت بعد اجتياح تيمورلنك خراسان وقضائه على آخر ملوكهم (علي بن المؤيد)، وقد جاءت ثورتهم كردّ فعل عنيف على ظلم المغول واستهتارهم، ويعد الشيخ «خليفة المازندراني» ومن ثم تلميذه «حسن جوري» منظّرا هذه الثورة، وتعود هذه التسمية (سربداران) إلى الشعار الحماسي الذي أطلقه مؤسس الدولة: «سَرْ بدار ميدهيم أما زير بار ننگ نميرويم» ومعناه «الموت شنقاً أفضل من الحياة ذلاً». ينحدر نسب هذه السلالة من جهة الأب عن الإمام الحسين ومن جهة الأم عن البرامكة.

ولقد كان الشيخ حسن جوري يؤمن بنظرية الانتظار السلبي للإمام المهدي.. أي ترقب خروج الإمام، ولهذا كان يُخرج مع اتباعه فرساً وسيفاً في فجر كل جمعة، ويطلقون استغاثتهم بالإمام المنتظر لينقذهم مما هم فيه.

غير أن حادثاً أطاح كما يبدو بموقفه، عندما دخل جندي مغولي بيته وراح يجمع ما يحلو له من الأشياء، ثم فكر بالاستيلاء على زوجته أيضاً مما دفع بالشيخ جوري إلى اعتراض الجندي وقتله لتشتعل الثورة، واكتشف أهل نيسابور فجأة أنهم أمام نمر ورقي، فسيطروا على خراسان بعد أن طردوا المغول منها.

التجربة السياسية[1]، لما يترتب على ذلك من اغتصاب لسلطة الإمام[2].

فحركة «السربداران» لم تأت عقب تطوّراً في الفكر السياسي الشيعي بقدر ما كانت وليدة حادث استثنائي أسهمت الظروف في تحويله إلى ثورة.

المشروطة.. البحث عن هوّية

لقد أسهمت ثورة التنباكو ولا شك في بلورة الضمير المسلم، ودفعت به خطوة نحو الأمام، ولقد كانت إيران آنذاك تعيش محنتها بين نارين؛ نار الاستبداد القاجاري الذي يقمع بشدّة كل دعوة للتنفس قليلاً[3]، ونار الوجود الأجنبي الذي أصبح ظلّه ثقيلاً بدرجة لا تطاق.

وهكذا؛ بدأ التفكير بنظام دستوري يحدد سلطة الشاه، وبدأ الحديث علناً في طهران عام ١٨٩٤م من على أعواد المنابر[4].

ولقد أدى التطور في الطباعة وتأسيس دار الفنون والمدارس العصرية واستقدام أساتذة ومدرسين أجانب؛ إضافة إلى إيفاد طلاب إيرانيين في بعثات دراسية إلى الخارج خاصّة الدول الغربية إلى جانب انتعاش حركة الترجمة، أدى كل ذلك إلى بلورة وعي سياسي بما يجري على الساحة العالمية.

---

١. سيد جمال الدين أسد آبادي بنيان گذار نهضت إحياء وتفكر ديني ـ محمد جواد صاحبي ط ٢٢٥.

٢. دور العلماء المعارض ـ حامد الغار - ١٨٤.

٣. صرّح ناصر الدين شاه ذات مرّة أنه يودّ أن يكون محاطاً بحاشية من الأغبياء لا يعرفون عن «بروكسل» هل هي مدينة أم نوع من الخس. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، علي الوردي ٣ - ١٠٣.

٤. كتب السيد محمد الطباطبائي أحد أبرز قادة المشروطة في مذكراته: «جئت إلى طهران، ومنذ دخولي إليها كنت بصدد تأسيس «مشروطة» في إيران وتأليف مجلس شورى شعبي، وكنت أتحدث من على المنبر عن هذين الأمرين». تاريخ العراق السياسي المعاصر، حسن شبر ٢ - ٦١.

فإذا وضعت هذه الصورة إلى جانب فساد الحكم وعدم كفاءة ملوك القاجار الذين باعوا البلاد إلى الأجنبي بثمن بخس، نكتشف وميض النار الذي يتأجج تحت الرماد.

وفي تلك الفترة من الزمن، كانت إيران ضحية أطماع لاحد لها من الروس والإنكليز، ولقد أنشب الدب والأسد مخالبهما في البلاد، وكان رؤساء الوزراء والقادة العسكريون وحكام المدن يُنحَّون ويبعَدون بأمر من السفارتين الروسية والبريطانية، واصبح استقلال إيران أمراً لا معنى له، وهكذا حدثت القطيعة بين الحكومة والشعب.

وكانت مشكلة إيران تتجسد في بعدين يرتبط أحدهما بالآخر؛ الاستبداد والوجود الأجنبي.

وما دام أنّ اكتشاف المرض لا يعني بداهة معرفة الدواء، فإن الحل لم يكن ليلوح في الأفق بشكل واضح، فلم يكن هناك فيما يبدو عزم أكيد على قيادة التجربة السياسية من لدن علماء الدين، فغاية ما يُطمح إليه آنذاك هو مكافحة الاستبداد، وتخليص البلاد من الوجود الأجنبي.

وباستثناء الشيخ الشهيد فضل الله نوري[1]، لم يكن أحد ليفكر في أن تهيمن الشريعة الإسلامية لتكون قانون البلاد؛ لأن ذلك سيكون مستحيلاً في غياب

---

١. نجح الإنكليز عام ١٩٠٧ في اختراق المشروطة وإفراغها من محتواها كـ «مشروعة» مثلما أراد لها الشيخ الشهيد، وقد حوصر «النوري» في منزله. وفي تلك الفترة عرضت السفارات الروسية والعثمانية والهولندية منحه حق اللجوء لإنقاذ حياته المهددة بالخطر، وقد رفض الشيخ الثوري ذلك.
كما حاول السفير الروسي كسب الشهيد والاستفادة من موقعه ضد الإنكليز، فأرسل عَلَم بلاده ليرفعه فوق منزله لحمايته، وقد حظيت هذه الخطوة بتأييد بعض أنصار الشيخ، ولكنه رفض ذلك قائلاً: لقد قضيت سبعين سنة من حياتي تحت راية الإسلام، ولا أريد أن أقضي بقية عمري تحت راية الكفر.. ردّوا العَلَم من حيث جاء»!

المعصوم أوّلاً، ثم إنه سيعدّ اغتصاباً لسلطة الإمام الغائب ثانياً.

وفي خضمّ تلك الظروف، صدر كتاب «تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة» لمؤلفه الشيخ محمد حسين النائيني[1]، فكان تأسيساً للفقه السياسي الإسلامي الحديث.

---

١. ولد سنة ١٨٥٧ في مدينة نائين في إقليم أصفهان، سافر إلى أصفهان لاستكمال دراسته الدينية وهو في العشرين من عمره، وتتلمذ على أيدي أساتذتها، حيث مكث فيها أكثر من عشرة أعوام ليغادرها إلى سامراء، وكانت الزعامة الدينية يومئذ للسيد محمد حسن الشيرازي صاحب فتوى التنباكو المعروفة.

وكانت للنائيني علاقات حميمة مع السيد جمال الدين الأفغاني.

وفي الفترة التي شهدت انقسام المجتمع الشيعي بشأن المسألة الدستورية وبدء الصراع بين «المستبدة» و«المشروطة»، ظهر كتابه الرائد «تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة» الذي يعدّ باكورة الفقه السياسي الإسلامي الحديث، وفيه عالج النائيني إشكالية الحكم في «عصر الغيبة الكبرى».

وقد حاول الشيخ النائيني أن يلعب دور الوسيط بين أكبر شخصيتين وهما: السيد جمال الدين الذي كان قد التقاه في أصفهان والسيد محمد حسن الشيرازي المرجع الشيعي الأعلى.

وكان السيد جمال الدين يحرص على لقاء الشيرازي، ولكن النائيني لم يوفق إلى ذلك رغم حرصه على ترتيب اللقاء بسبب موقف الشيرازي القاطع إزاء جمال الدين!

وعندما أصبح الشيخ في الخمسينات من عمره كانت الحركة الدستورية في ذروتها وكان أحد الأعضاء في مجموعة العلماء القيادية في النجف، وتولى بنفسه صياغة البيانات والرسائل التي كانت تصدر باسم الشيخ الخراساني زعيم «المشروطة».

وفي عام ١٩٢٣، تم إبعاده إلى إيران مع العلماء المعارضين للمعاهدة العراقية البريطانية، وخلال إقامته في قم، كان له موقفه المساند إلى حدّ ما ولمبررات غير واضحة لرضا خان، وكان الأخير في وقتها رئيساً للوزراء ويسعى جاهداً للإطاحة بالمَلَكية وتشكيل نظام جمهوري بدعم من الإنكليز الذين نجحوا في إقامة مثل هذا النظام في تركيا؛ ولهذا سعى النائيني في إقناع السيد حسن المدرس المعارض العنيد لرضا خان في إنهاء معارضته! ولكنه أخفق في ذلك. وفي آذار سنة ١٩٢٤، عاد إلى العراق بعد موافقة الحكومة العراقية على عودة المنفيين بشرط عدم تدخلهم في السياسة.

وفي عام ١٩٢٥، أصدر النائيني بالاشتراك مع السيد أبي الحسن الأصفهاني رفيقه في المنفى فتوى تحرّم معارضه حكومة رضا خان، وهي الفتوى التي طوت حكم القاجار ومهدت السبيل أمام أسرة «بهلوي».

توفي الشيخ النائيني في بغداد سنة ١٩٣٦ بعد تدهور صحته في السنوات الأخيرة.

وقد حلّ الكتاب إشكالية الحكم بالشكل الذي يُلزم الحكومة بدستور يحدد حقوق وواجبات الدولة، فيما يشرف مجموعة من الفقهاء على عملية تطبيق الدستور الذي يجب ألّا يتضمّن أيّ مادّة تصطدم مع الإسلام.

وهكذا؛ تبلور موقف إسلامي جديد يجعل من منع الحكم المطلق وتأسيس مجلس وطني فريضة دينية[1].

وكانت الشرارة التي أضرمت نار الحركة الدستورية هو ارتفاع أسعار السكر ارتفاعاً فاحشاً، ولعلّ هذا يعود إلى إجراءات المسيو «نوژ» البلجيكي الذي كان يرأس الجمارك الإيرانية!

ومما زاد الوضع سوءاً وقوع صورة للأخير في أيدي الفقهاء؛ حيث يظهر فيها مرتدياً الزي الديني في حفلة تنكرية أقامتها إحدى الجاليات الأجنبية في طهران.

واعتُبر هذا العمل سخرية من الفقهاء الذين ردّوا على ذلك بالاعتصام في إحدى الساحات العامّة، وما لبثت الأوضاع أن تفاقمت لدى إقدام «عين الدولة» رئيس الوزراء آنذاك بإهانة التجار وتعريضهم لعقوبات قاسية؛ حيث تعرّضوا للضرب بـ«الفلقة» أمام الملأ العام، فقرر التجار اللجوء إلى مرقد عبد العظيم، وبدأت أعداد اللاجئين تتضاعف حتى وصلت إلى عشرة آلاف معتصم.

وهنا هبّ العلماء لقيادة هذا الاحتجاج الواسع، فانضم كل من السيد محمد الطباطبائي، والسيد عبدالله البهباني والشيخ فضل الله نوري إلى جموع الشعب الغاضب.

ومن هناك في جنوب طهران في ذلك المكان المقدس، أُعلن عن مطالب الإصلاح السياسي.

وقد حاول عين الدولة رئيس الوزراء، الذي اتسم بالقسوة، قمع الاعتصام

---

١. دور العلماء المعارض في السياسة الإيرانية - ١٧٧.

واقتحام المرقد، ولكنه فشل في ذلك.

ثم قطع تيار الماء والكهرباء مدّة أربعة أيام، فعُدّ موقف الحكومة استمراراً لممارسات الحكم الأموي.

وأخيراً؛ فك طوق الحصار، وسمح للعلماء بمغادرة طهران إلى قم في خطوة عرفت آنذاك بـ «الهجرة الكبرى» التي أخذت أبعاداً خطيرة اضطرت الشاه إلى إصدار مرسوم يقضي بعزل عين الدولة والموافقة على تأسيس «ديوان العدالة»، وذلك في ١٤ جمادي الثانية ١٣٢٤.

واستمر العلماء في اعتصامهم حتى إعلان الشاه عن موافقته على «الدستور» وتشكيل «المجلس الوطني»، وقد أذيع «فرمان مشروطيت» في ١٥ آب ١٩٠٦، لتصبح إيران ولأول مرّة دولة دستورية.

وقد أجريت الانتخابات النيابية بعد شهر؛ حيث افتتح المجلس لتأتي تشكيلته ستون نائباً عن طهران بينهم أمراء القاجار (٤ نواب)، العلماء والطلاب (٤ نواب)، التجار (١٠ نواب)، الملاكون والفلاحون (١٠ نواب)، ومن أذربيجان (١٢ نائباً)، وجيلان وتالش (٦ نواب)، ومن ما زندان ومدن الشمال (٦ نواب)، وقزوين وسمنان (٦ نواب)[١].

وعندما عقد المجلس دورته الأولى، كانت موادّه البالغة (١٥) مادّة قد جاءت نسخة من قوانين الدول الأوروبية تقريباً باستثناء المواد الهامشية من أجل إضفاء الصبغة الإسلامية.

وقد صادق الشاه مظفر الدين وولي عهده محمد علي شاه على الدستور، وما لبث مظفر الدين شاه أن توفي ليتربع على العرش ابنه محمد علي.

---

١. آفتاب نيمه شب «شمس في منتصف الليل» - ٤٨.

تقاسم النفوذ.. احتواء المشروطة

في عام ١٩٠٧، جلس الدبّ والأسد يتقاسمان الأرض والنفوذ، وبعد مفاوضات سرّية طويلة، أعلنت الإمبراطوريتان أنهما قد وضعتا معاهدة تم بموجبها تقسيم إيران إلى ثلاثة مناطق: منطقة نفوذ روسية في الشمال، ومنطقة للنفوذ البريطاني في الجنوب، أما المنطقة الوسطى، فاعتبرت منطقة محايدة، ولا يعني الحياد هنا خروجها عن الهيمنة الأجنبية؛ بل تكون المصالح الروسية والبريطانية مشتركة ومتساوية.

وكانت الخطط البريطانية تتحرك باتجاه تجذير النفوذ من خلال التشجيع على حركات دستورية؛ لأنه سوف يأتي من يضمن مصالحها عندما يأتي دور تشريع القوانين التي ستكون أجنبية بسبب طبيعة الزعامات الدستورية التي يمكن زجّها في المعركة، ولهذا نرى أن التجربة في إيران سوف تتكرر في تركيا وفي العراق فيما بعد.

كانت بريطانيا فيما مضى تواجه الاتجاه الدستوري في إيران، ولكنها قررت مساندة «المشروطة»، ونظمت اعتصاماً في سفارتها بطهران؛ حيث لجأ عشرة آلاف مواطن إيراني، وهو ما أثار حفيظة الشيخ الشهيد النوري الذي دعا إلى الاعتصام بالأضرحة والمساجد، وطالب أن تكون المشروطة «مشروعة».

وفي هذه الفترة، حدثت أزمة خطيرة داخل المجلس، عندما حاول الشيخ الشهيد إضافة مادّة تسلب الاعتبار من كل القوانين المخالفة للشريعة، وتشكيل لجنة دائمة من المجتهدين والفقهاء تقوم بدراسة اللوائح القانونية قبل المصادقة عليها، وتعتبر آراء اللجنة ملزمة التنفيذ، وتعدّ هذه المادّة أبدية وغير قابلة للتغيير، ولكن تقي زادة رجل الإنكليز أفشل المحاولة المخلصة لتمكين الشريعة من الحياة.

وعندها انسحب الشيخ النوري ليعلن إدانته للمشروطة التي «يُطبخ رزّها في السفارة البريطانية».

وفي يوم الاثنين ١٨ جمادى الثانية ١٣٢٥، أصدر بياناً يوضح فيه بواعث موقفه الجديد من «المشروطة»، ذكر فيه الأسباب التي دفعته إلى ذلك:

١. مساس الصحف بكرامة النبي ﷺ والأئمّة الأطهار وعلماء الإسلام.

٢. ارتكاب المذابح بحق الشعب واستمرار الاعتقالات.

٣. صياغة الدستور الإيراني بشكل جعله نسخة من الدساتير الأجنبية.

كما اقترح الشيخ النوري إدراج رسالة الآخوند الخراساني في جهاد الكفار ضمن القانون الداخلي للمجلس.

وفي هذه الفترة العصيبة، أُعلن عن محاولة لاغتيال الشاه، لتكون ذريعة للانتقام من الحركة الدستورية، فصدرت الأوامر إلى الجيش بقصف المجلس الوطني بالمدفعية، وألقي القبض على السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني، فأُبعد الأول إلى خراسان، والثاني إلى كرمنشاه، ومن المثير غياب تقي زادة عميل الإنكليز عن حضور الجلسة عندما تقررت ساعة القصف!!

وتواترت البرقيات إلى النجف الأشرف تستنجد بالعلماء وتكشف عما يجري من مذابح في مختلف المدن الإيرانية، وكان استشهاد الواعظ الأصفهاني في طليعة الحوادث المريرة.

وحاول محمد علي شاه أن يناور، فأبرق هو الآخر إلى النجف مبرراً إجراءاته بأنها احترازية من أجل استتباب الأمن، وأنه ما يزال يؤيد «المشروطة».

وفي ذلك المقطع التاريخي الحساس تصدّى الآخوند الخراساني لقيادة حركة «المشروطة» تسانده هيئة من علماء النجف الأشرف في طليعتهم الشيخ محمد حسين النائيني الذي تولّى تحرير البرقيات والبيانات التي كانت تصدر

باسم الآخوند الخراساني[1].

وعندما شعر الخراساني باليأس الكامل، هاجم الشاه في بيان شديد اللهجة، واتهم الحكم القاجاري بالخيانة، وأنه كان السبب في ضياع الأرض الإسلامية في القفقاز والتركمان والتركمستان وبحر الخزر، وقد جاء في المقطع الأخير من البيان ما يلي:

«.. أيها الضالّ المنكر للدين؛ أبوك هو الذي أصدر «المشروطة»، ولكنك عندما تربعت على عرش السلطنة، وضعت كل الوعود تحت قدميك.. ولقد سمعت بأنك أرسلت من قبلك إلى النجف من يشتري لك الذمم والضمائر غافلاً عن أن سعادة الشعب أفضل من أموالك. إنك تتظاهر باحترام الدين، ولكنك تعاديه وتخونه وتخون بلادك.. سوف أعود إلى إيران وسأعلن الجهاد»[2].

ووجه الخراساني نداءً إلى الشعب الإيراني جاء فيه: «إن الدفاع عن أموال وأرواح المسلمين ومقارعة هذا السفاك الجبار من أهم الواجبات، وإن دفع الضرائب لمأموري الدولة من أعظم المحرّمات»[3].

وكانت المؤشرات تؤكد رضا الإنكليز عما يقوم به الشاه، فقد تغيّب تقي زادة وأصدقاء الإنكليز الآخرون عن المجلس صبيحة القصف المدفعي الذي نفذه «ليافوف» الروسي قائد قوات الدرك في طهران!!

وتزامن ذلك مع إنزال الإنكليز قواتهم في السواحل الجنوبية واعتقال زعماء «المشروطة» في بوشهر، وكان «السيد عبد الحسين اللاري» قد وقف إلى جانب المشروطة وصعّد من مقاومة الأجانب بإعلانه حرمة السلع الأجنبية بما في ذلك الشاي والسكر والسجائر.

---

١. تشيع ومشروطة (بالفارسية) - ١٥٦.

٢. آفتاب نيمه شب - ٥٤.

٣. المصدر السابق - ٥٥.

وكان يرى أنّ في التورط بها أضراراً أقلّها الاعتياد عليها وتحوّلها من الكماليات إلى الضروريات، وعندها تصبح سلاحاً في يد الأجنبي ووسيلة للضغط[١].

وأسفر الشاه عن حقيقته ليعلن على الملأ في أكتوبر ١٩٠٨ حلّ المجلس معللاً بأن «افتتاح المجلس وتحقير الإسلام شيء واحد»[٢]!

وتفاقمت الأوضاع لتصل حالة الانفجار الشعبي الهائل الذي ينذر بحمامات الدم سيما وأن قوّات «القوزاق»[٣] التي أنشئت لتكون نواة للجيش الإيراني لم تكن سوى أداة بيد الأجنبي.

واتخذ الصراع بين القيادة الدينية والشاه أبعاداً واسعة عندما كانت الفتاوى الثورية تعبر حدود العراق وإيران إلى تركيا وباكو والى روسيا؛ فقد وجّه الخراساني إلى مسلمي باكو، والمازندراني إلى روسيا، نداءً لنجدة إخوانهم في تبريز التي تحاصرها قوّات الشاه[٤].

وسجل الأذربيجانيون بقيادة «ستار خان»[٥] ملحمة في المقاومة البطولية،

---

١. مهاجر إلى الله (بالفارسية) - ١٨٣.

٢. ثورة النجف - ٧٠.

٣. في عام ١٨٧٨، أسس ناصر الدين شاه وبالاعتماد على الروس أول «قزاق خانه» (تشكيلات القوزاق)، وهي قوّات إيرانية تحت قيادة روسية ويشرف الضابط الروسي على تدريب الجنود الإيرانيين وإرساء التشكيلات والوحدات العسكرية الحديثة، لتكون نواة للجيش الإيراني، وسرعان ما امتدت فروعها في كل من تبريز، أصفهان، مشهد، بابل، ورشت. تاريخ سياسي معاصر ايران، سيد جلال الدين مدني.

٤. شمس في منتصف الليل - ٥٧.

٥. زعيم وطني وأحد قادة «المشروطة»، قاد حركة المقاومة في تبريز بعد حصارها من قبل القوات الحكومية مدّة أحد عشر شهراً (٢٣ جمادي الأولى ١٣٢٦هـ وحتى ٨ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ)، وقد عم القحط والجوع المدينة. اتفق الروس والإنكليز على كسر الحصار، فتحركت قوّات روسية ودخلت المدينة ودخلت المواد الغذائية وانتهى الحصار.
ونتيجة للضغوط الروسية اضطر للجوء إلى القنصلية العثمانية، وأخيراً وبعد تفاقم الضغط

تركت صداها في إيران كلّها، فتحركت عشائر بختيار بقيادة زعيمها صمصام السلطنة، فسقطت أصفهان، وتزامن ذلك مع نجاح انتفاضة شعبية في رَشت، فسيطر الثوار عليها وتم إعدام حاكمها المستبدّ.

وكانت تبريز ما تزال تقاوم الحصار، وكان الجوع والقحط يهدّدان المدينة بالفناء، ولكن الحوادث كانت تسير بغير صالح الشاه، فقد توجهت التعزيزات العسكرية المزمع إرسالها إلى تبريز إلى طهران لتدارك خطوطها الدفاعية، بعد أن أعلنت قوّات «المشروطة» في رشت وأصفهان عزمها على احتلال العاصمة.

واستنجد الشاه بالقيصر الذي أرسل قوّاته على وجه السرعة، فاحتلت المناطق المؤدية إلى قزوين لقطع الطريق على العاصمة، ولكن القوّات الشعبية كانت أعرف بطبيعة الأرض، فضاعفت من سرعة تقدّمها لتقتحم طهران من بوابة «يوسف آباد» في فجر ٢٨ جمادي الثانية ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م، فيما لجأ الشاه مع أسرته إلى السفارة الروسية[١].

الروسي غادر تبريز مع زميله في حركة المقاومة «باقر خان» متوجهين صوب طهران لتحريرها من سلطة الاستبداد.

وفي معسكره في «آتابك» بطهران، اشتبك مع القوّات الحكومية التي أعلنت قرارها بخلع سلاح المجاهدين ودارت معارك ضارية؛ حيث جرح ستار خان وأسر باقر خان مع ثلاثمائة أسير، وما لبثت الحكومة أن صرفت مرتباً شهرياً لكلا الزعيمين.

توفي ستار خان بعد أربع سنوات متأثراً بجراحه - فرهنگ معين (بالفارسية). وكان ستار خان وأثناء تدهور أوضاع تبريز بسبب الحصار واحتمال سقوط المدينة قد رفض عرضاً من القنصل الروسي في رفع علم روسيا على بلاده قائلاً: إنني أطمح إلى إعادة سبعة بلدان إلى العَلَم الإيراني، وأنت تعرض عليّ أن ألجأ إلى علم روسيا!! - «شمس في منتصف الليل - ٥٧». وستار خان يشير إلى الأقاليم التي سقطت في أيدي الروس في حروب سابقة وأقرت احتلالها معاهدات ظالمة سبق الإشارة إليها في هامش ١، ٢.

١. تاريخ تحولات سياسي وروابط خارجي - ٢ - ١٨٥.

الاختراق الإنكليزي

وفي خضمّ تلك الحوادث العصيبة والمثيرة، برزت السياسة الإنكليزية لتسجل لها أكبر نجاح في اختراق الحركة الدستورية.

فقد تقرر السماح لمحمد علي شاه بمغادرة إيران بسلام مع تخصيص مرتب شهري قدره ١٠٠,٠٠٠ تومان!

أما عين الدولة، فقد صدر عفو بشأنه وتغاضت حكومة المشروطة عن كل جرائمه في «تبريز» و«قوچان»، كما اعتبر لياخوف الذي قصف المجلس بالمدافع غير مسؤول عن عمله؛ لأنه كان يؤدي واجبه العسكري!!

كما أصبح «أمير بهادر» وزير الحرب في عهد الشاه أحد المتنفذين في حكومة المشروطة التي ألقت القبض على الشيخ فضل الله نوري ليقف أمام محكمة تزكم الأنوف بعمالتها للإنكليز[١].

---

١. يكشف الحوار الآتي وقائع محاكمة الشيخ الشهيد:
شيخ إبراهيم زنجاني: بسم الله قاصم الجبارين نبدأ المحكمة بقراءة قرار التجريم، الذي يضم الاتهامات الموجهة إلى الشيخ فضل الله النوري بن ملا عباس كجوري.
عندما وافق المرحوم مظفر الدين شاه، وبعده محمد علي ميرزا المخلوع على مطلب الشعب ووقّعا على الدستور والميثاق الأساسي، وكان لسماحتكم، وبعض العلماء المعروفين، دور كبير في إقرار هذا الأمر، كنت تحضر أغلب جلسات مجلس الشورى لمدة ثمانية أشهر، حيث كانت تدون وتصحح مواد الدستور بعلمكم وبعلم الآخرين، فما الذي حصل وجعلك تشقّ عصا الأمة؟ وتزرع الفرقة بين الناس، وترفع لواء المعارضة؟ لقد جمعت حولك زمرة من الأشرار، وطرحت المادة التي هي أصل الفساد الكبير، والسبب الأساس في إراقة دم خمسين ألف إيراني بريء.
إذا كانت المشروطة حلالاً وواجباً، فلماذا عارضتها بهذه الشدة؟ ولماذا لم تصغِ للنصائح المتكررة التي وُجِّهت إليك بعد إعلانك معارضتك للمشروطة؟ كنت بنفسي حاضراً إحدى الليالي، في منزل السيد ميرزا سيد محمد، وكان السيد عبدالله أيضاً موجوداً مع خمسة وعشرين من الوكلاء ذوي الشأن، عندما أقسمت الأيمان المغلظة بالقرآن الكريم، بأنك دائماً تؤيّد المشروطة.

الشيخ فضل الله: أرجو أن تذكر تتمة الكلام الذي قلته يومئذ.
زنجاني: وبعد بضعة أيام نكثت يمينك ودعوت بدعوة الفساد، ورفعت لواء المعارضة، فعاد جماعة للاتصال بك، فكنت تقول إن اعتراضك على تلك المادة المحددة من الدستور. ثم ذهبت إلى مزار السيد عبد العظيم، وهناك أطلقت شتى الاتهامات الشفوية، والتحريرية، بحق النواب، ومارست ألوان الفساد، إنك يا شيخ فضل الله النوري متهم بـ:
أولاً ـ إثارة الاضطرابات.
ثانياً ـ قتل بضعة أشخاص بأوامر شخصية منك.
ثالثاً ـ معارضة المشروطة التي دعا إليها السادة العلماء.
ولهذه الأسباب فأنت أمام العدالة محكوم بالإعدام.
أحد الحاضرين: قبل تنفيذ الحكم يمكنك أن تدافع عن نفسك.
شيخ فضل الله: بسم الله الرحمن الرحيم. قبل أن أدافع عن نفسي بيّنوا ما فعلتم بمحمد علي ميرزا؟ (الشاه المخلوع).
أحدهم: هذا الأمر لا يتعلق بك.
شيخ فضل الله: لقد كان محمد علي ميرزا شاهاً ورأساً للاستبداد، لكنكم أعطيتموه الأمان ليخرج من إيران، وتغاضيتم عن كل جرائم القتل والنهب التي ارتكبها، وقررتم إرسال مائة ألف تومان له شهرياً. أليس هذا ما كنا نقوله منذ البداية من أن المشروطة التي تصنع في السفارة البريطانية لن تكون نتيجتها غير هذا؟!
أحدهم: دافع عن نفسك.
شيخ فضل الله: يصلنا الدور. وماذا فعلتم بعين الدولة (الصدر الأعظم)؟ بسبب مساعدته على الظلم والقتل اللذين لاحدَّ لهما؟ سمعت أنكم عفوتم عنه أيضاً، وأنتم تعلمون مَن الذي قتل أهالي تبريز، ومن الذي حمل أهالي قوجان على بيع بناتهم.
أحدهم: لا علاقة لك بما فعلنا بالآخرين.
شيخ فضل الله: لا بأس أن تعطوه حقيبة وزارية أيضاً، فمثله جدير بها.
ثم ماذا فعلتم بلياخوف؟ لم أكن أنا الذي قصف المجلس بالمدافع، ولست الذي قتل أهالي طهران، ماذا فعلتم به؟ لقد سمعت أنه جاء إلى السردار أسعد وألقى أمامه سيفه على الأرض علامة على الاستسلام، وأن السردار أسعد، قلده سيفه مرة ثانية. ماذا تسمون ذلك؟
أحدهم: لقد كان يؤدي واجبه العسكري.
شيخ فضل الله: إذاً؛ فالجرم الوحيد هو تأدية الواجب الإسلامي؟!
أمير بهادر: أنت تحاكمنا بدل أن نحاكمك؟
شيخ فضل الله: وأما أنت يا أمير بهادر، فكيف ومتى أصبحت من طلاب المشروطة؟ أنت

والانحراف عن الأهداف، ولكن دون جدوى، فعبّر عن ذلك بمرارة[1] لدى لقائه أحد قادتها الذي وصل النجف مبعداً بقرار من حكومة المشروطة نفسها!!.

وكان الشيخ فضل الله نوري قد تلقى قبيل سقوط طهران دعـوات من السفارات الروسية والعثمانية والهولندية لمنحه حق اللجوء وإنقاذ حياته المهددة بالخطر، وقد رفض الشيخ تلك العروض، كما حاول السفير الروسي كسب الشيخ، فأرسل علم بلاده ليرفعه فوق منزله لحمايته.

وقد حظيت هذه الخطوة بتأييد بعض أنصار الشيخ، ولكن الأخير رفض ذلك

الذي كنت بالأمس وزير حرب المستبدين، أصبحت اليوم قاضي قضاة المشروطة؟ الحمد لله أن عشنا وشاهدنا تقلُّبَ الأيام. لقد علمت أنك هنا، فأحضرت معي هذه الوثيقة. هل تتذكر يا سيد أمير بهادر عندما بعث السيد بهبهاني، والسيد طباطبائي، برقيات إلى المدن؟ دعني أقرأ لك نص البرقية: (السادة العلماء الأعلام، وحصون الإسلام، جمعية الولاية وسائر الجمعيات؛ إن إبعاد عدد من حاشية البلاط، كأمير بهادر الذي كان ضالعاً بالفساد وإفساد العلاقة بين الشعب والشاه..)

زنجاني: ليس لك أن تتدخل في شؤون المشروطة.

شيخ فضل الله: أريد أن أقول إن المشروطة التي تزدهر تحت مظلّة الأجنبي، يحتفل بها مع المستبدين. إذا كنتم تعتبروننني من طلاب الاستبداد ـ وأنتم لا تعتبروننني كذلك، وتعلم ضمائركم ذلك ـ فلماذا على الأقل لم تفعلوا بي مثل ما فعلتم بمحمد علي ميرزا وعين الدولة ولياخوف؟! وأنتم أنفسكم تعلمون: أن ذلك أسلم لي، وأنه كان قد طُلب مني أن ألجأ إلى السفارة الروسية أو العثمانية، لأضمن سلامتي، وتعلمون أيضاً: أنني رفضت!! وقد قلتم أيضاً إنني كنت من طلاب المشروطة ثم انفصلت عنها، وأنتم تعلمون سبب انفصالي. إن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً كان يحارب بني أمية مع العباسيين في أول الأمر ولكنه عندما رأى انحرافهم تركهم، ثم قُتِلَ على يد العباسيين في النهاية.

أمير بهادر: تقارن نفسك بالإمام الصادق أيها الشيخ؟!!

شيخ فضل الله: كلا؛ إنني أقارنكم بالعباسيين.

١. في زيارة الشيخ الخراساني لآية الله الزنجاني، الذي أُبعد إلى النجف، علق على نتائج الثورة الدستورية قائلاً بالفارسية: «ما كشمش را پختيم تا سركه شود چرا شراب شد؟!». ومعناه: لقد أردنا للزبيب أن يكون خلاّ فلماذا أصبح خمراً؟!!».
شمس في منتصف الليل - ٦٧.

قائلاً: لقد قضيت سبعين سنة من حياتي تحت راية الإسلام، ولا أريد أن أقضي بقية عمري تحت راية الكفر.. ردّوا العلم من حيث جاء.

وتذكر بعض المصادر أن الآخوند الخراساني قد أبرق[1] إلى طهران للحؤول دون إعدام الشيخ فضل الله، ولكن البرقية أخفيت وأحيطت بالكتمان من قبل عملاء الإنكليز.

وفي غمرة تلك الملابسات اقتيد شيخٌ في السبعين من عمره إلى ميدان المدفعية وسط طهران ليشنق وسط هتافات هستيرية تحيّي الدستور وتندّد بالاستبداد!

كما ألقي القبض على آية الله الزنجاني لمحاكمته رغم تقدّمه في السن (٩٢ عاماً)، ولكن الخراساني بعث برقية شديدة اللهجة، فألغيت وتم إبعاده إلى العراق؛ وفي التاسع من رجب سنة ١٣٢٨ تم اغتيال السيد عبدالله البهباني بأوامر شخصية من حسن تقي زاده، فيما لزم آية الله الطباطبائي منزله بعد أن تلقى تهديدات تحذره من نفس المصير!

العدوان الروسي

كانت روسيا قد أرسلت قواتها لدعم محمد علي شاه، الذي فرّ بعد سقوط طهران، مخلّفاً في الحكم ابنه أحمد شاه، وكان بقاء قوات روسيا يشكّل هاجساً مقلقاً لمن يعرف مدى الأطماع الروسية في البلاد.

ولذا؛ كان الخراساني يشدّد على إجلاء الروس عن البلاد، فقد وجّه نداءه إلى مجلس الشورى حول هذه المسألة وجاء في جانب منه:

«لقد مضت عشرة أشهر على انعقاد الدورة الثانية وما نزال ننتظر بشرى طرد الروس من إيران..

---

١. المصدر السابق - ٦٣.

لقد تلطخت «المشروطة» واستقلال إيـران بل ديننا وروحنا الوطنية والإنسانية بالعار، وعلى هذا ينبغي على الشعب الامتناع عن شراء البضائع الروسية كخطوة في طريق الجهاد والصراع ضد الروس».

وردّاً على هذا أرسلت الحكومة الروسية سفيرها في بغداد إلى النجف للقاء الخراساني وإقناعه بإلغاء فتواه، غير أن الأخير رفض أصلاً لقاء السفير الروسي، واكتفى باستلام طلب تحريري يتضمن رغبة بلاده.

وفي ردّه على السفير أبرق الخراساني وطلب من حكومة روسيا سحب جنودها من الأراضي الإيرانية، وتجاهلت روسيا الطلب وحذرت عبر قنصلها في بغداد بأنها ستردّ بالمثل.

وفي معرض ردّه أجاب الشيخ الخراساني:

«إن الأمة الإيرانية تنشد الاستقلال واحترام الحقوق الدولية، إن الحكومة الروسية تتجاهل هذه الحقوق، ولا توجد مبررات للتدخل الروسي في إيران، وإن بقاء جنود روسيا في إيران يضر بأمن وتقدم البلاد»[1].

وفي أواخـر عام ١٣٢٨هـ، صادق مجلس الشورى الوطني على استقدام مستشار أميركي للشؤون المالية، وعلى أثر ذلك تم استخدام مورغان شوستر مسؤولاً للخزانة الإيرانية مدة ثلاث سنوات، وأقدمت روسيا على تعزيز قواتها العسكرية بعد أن وجّهت إنذاراً إلى الحكومة وهددت باحتلال طهران إذا لم ترحّل الأخيرة المستشار الأميركي.

وفي مداولات مجلس الشورى، رفض الشهيد حسن المدرّس[2] والشهيد

---

١. مرگی در نور «موت في الضوء» - ٢٤١ ـ ٢٤٥.

٢. ولد سنة ١٨٦٧ في أردستان في إقليم أصفهان، في السادسة عشرة من عمره سافر إلى أصفهان لاستكمال دراسته استجابة لوصية جدّه، حيث مكث فيها خمس سنين تلقى خلالها دروساً في العربية والبيان إضافة إلى الفلسفة والأصول.

محمد خيابانيّ[1] تهديدات روسيا وأعلن المجلس الوطني ذلك رسمياً.

وعندما بلغ السابعة والثلاثين هاجر إلى النجف الأشرف، وتتلمذ على أيدي أساتذتها وفي طليعتهم الخراساني واليزدي، وبعد سبعة أعوام عاد إلى أصفهان.

اشترك بدور فاعل في الثورة الدستورية، وما لبث أن انتخب عضواً في البرلمان بعد نجاحها، وأصبح ممثلاً عن طهران، كما أصبح عضواً في اللجنة الخماسية المشرفة على اللوائح التي تشرّع في البرلمان.

كما انتخب أيضاً لـدورة ثانية، وقد كشفت تجربته النيابية عن صراحة وصلابـة ميزت شخصيته. وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، كان مدرس أحد أعضاء الحكومة الموقتة التي تشكلت لوقف حالة التداعي في البلاد بعد عجز الحكومة «المركزية»، وقد أخفقت الحكومة المؤقتة بسبب الضغوط الأجنبية، فهاجر إلى تركيا عام ١٩١٧ ليعود بعد عامين؛ وليعلن معارضته الشديدة لاتفاقية ١٩١٩ التي عقدها «وثوق الدولة» مع بريطانيا. وقد نجح في حمل البرلمان للتصويت ضدها، مما دفع ببريطانيا للتفكير في الانقلاب العسكري. وفي ظل الانقلاب، ألقي القبض عليه وزجّ في السجن ليفرج عنه بعد سقوط حكومة ضياء الدين.

عرف عن المدرس ذكاءه ووعيه للخطر الإنكليزي الذي كان يوجه الأحداث من وراء ستار، وقد أدرك المدرس أن رضا خان الذي قام بحركته الانقلابية وزحف بقوات القوزاق من قزوين إلى طهران ليس إلاّ عميلاً بريطانياً اتخذه الإنكليز وسيلة لتحقيق مآربهم وملء الفراغ الذي نجم عن انسحاب الروس بعد الثورة البلشفية.

خاض مدرس صراعاً مريراً ضد حكومة رضا خان منذ رئاسة الأخير للوزراء وحتى اعتلائه العرش ١٩٢٥؛ حيث قام بإبعاد المدرس إلى خراسان في منطقة نائية على الحدود الأفغانية في منطقة تدعى «خواف» التي كتب فيها مؤلفه المعروف بـ «خوافنامة».

وبعد أحد عشر عاماً من الإقامة الجبرية، تم إبعاده إلى مدينة كاشمر تمهيداً لاغتياله، وفي شهر رمضان ١٩٣٧ اقتحم جلاوزة رضا خان، الذي أصبح دكتاتوراً دموياً، منزل حسن المدرس وأجبروه على تناول شاي مسموم، وقد أمسك الشهيد فنجان الشاي وتجرع ما فيه بشجاعة، ثم قام للصلاة، ويقال إن السم لم يفعل فعله المطلوب؛ لذلك بادر الجلاوزة إلى خنقه بعمامته.

شهداى روحانيت شيعه در يک صد ساله أخير - علي ربّاني خلخالي.

١. ولد الثائر الشيخ محمد خيابانى ١٢٩٧هـ ١٨٧٧م في تبريز، نهض لمواجهة الوجود الروسي إبّان الحرب العالمية الأولى، كما قاوم الحكومة المركزية بسبب فسادها وخضوعها للنفوذ الإنكليزي، وكان على وشك أن يمدّ جسوره مع ميرزا كوجك خان في گيلان عندما وصلت قوات القوزاق تبريز وحدثت اشتباكات عنيفة لقي مصرعه فيها عام ١٩٢٠.

فرهنگ معين المجلد الخامس - ٤٩٠.

وقد فوجئت روسيا بقرار الرفض، وأمهلت الحكومة الإيرانية مدّة ٤٨ ساعة لإعلان قرارها بطرد شوستر واستخدام مستشار روسي أو إنكليزي.

وبعد انتهاء مدّة الإنذار، اجتاحت القوات الروسية مناطق واسعة من الشمال الإيراني، وواصلت تقدمها باتجاه قزوين.

وكانت بريطانيا تؤيد ضمناً الموقف الروسي، فعززت هي الأخرى قدراتها العسكرية في الجنوب.

وأعلن الخراساني فتواه بجهاد الروس، وتعطلت الدراسة في النجف، وتعطّلت الأعمال في كثير من البلدان الإسلامية كالقفقاز والهند تضامناً مع إيران.

وأبرق الخراساني إلى مجلس الشورى وأعلن عزمه على المجيء إلى إيران وقيادة حركة الجهاد ضد العدوان الروسي.

وهكذا؛ بدأت الاستعدادات التي بلغت مداها بعد أنباء الاجتياح الإيطالي للأراضي الليبية.

وفي تلك اللحظات المصيرية، أُعلن عن وفاة الخراساني المفاجئة والتي تمت في ظروف غامضة.

وترى بعض الدراسات التاريخية أنه اغتيل بدس بعض أنواع السموم في طعامه أو شرابه[1]، وأن الإنكليز كانوا وراء عملية الاغتيال، فتعثرت إثر ذلك الاستعدادات، ثم ما لبثت أن اشتدّت بعد إقدام القوّات الروسية على قصف مشهد الإمام الرضا عليه السلام بالمدافع[2]، فدعت لجنة من العلماء إلى عقد مؤتمر

---

١. ثورة النجف - ١١٥ الأسدي.

٢. كتب السير برسي سايكس في كتابه مجد العالم الشيعي: في ٢٩ - آذار ١٩١٢، أطلقت المدافع الروسية قذائفها على المشهد الرضوي، ومن ثم احتلال المرقد المقدس ونهب الخزانة الرضوية التي حوّلت إلى البنك الروسي.
The Glory of the shia world p.p 46

في الكاظمية، وتقرر إعلان الجهاد ضد روسيا مرّة أخرى، وخلال المداولات تقرّر أيضاً ترك زمام المبادرة للحكومة الإيرانية[1] التي أحاطتهم علماً بعدم الحاجة إليهم!

الحرب العالمية

في عام ١٩١٤، استيقظ العالم على دوي الحرب العالمية الأولى، وواجهت إيران محنتها الجديدة باجتياح الجيوش المتصارعة أراضيها لتتحول إلى مسرح للقتال.

واشتعلت الروح الوطنية في البلاد، وفي طهران تشكلت «هيئت اتحاد إسلام» من قبل مجموعة من العلماء، وكان ميرزا كوجك خان، الذي عاد إلى طهران سنة ١٩١٢ بعد أن استعاد صحته، قد أجرى مفاوضات مع «هيئت اتحاد إسلام»، وأصبح عضواً فيها؛ ولم يكن هذا التشكيل سوى ثمرة لكلمات السيد جمال الدين الأفغاني التي ترعرت في قلوب الأحرار.

وكان الهدف من «هيئت اتحاد إسلام» هو إنقاذ البلاد من ظروفها المأساوية.

ولم يكن هناك انسجام فيما يبدو حول الوسائل التي من شأنها إنقاذ البلاد.

وكان ميرزا كوجك خان من دعاة الحلّ الثوري، فالجهاد المسلح هو وحده الذي يمكنه أن يصنع شيئاً لإنقاذ إيران من فساد حكومتها الضعيفة والاحتلال الأجنبي.

كانت القوّات الإنكليزية قد احتلت الفاو، وراحت تواصل تقدّمها باتجاه

وكان الروس قد افتعلوا أزمة ليجعلوا منها ذريعة لاحتلال المدينة، وكان من المفروض أن يكافأ العميل (يوسف هراتي)، ولكنه أعدم دون محاكمة؛ لأن الجثث لا يمكنها الاعتراف بشيء.

موسوعة العتبات المقدسة ١١ - ٢٨٩.

١. تاريخ العراق السياسي، حسن شبر ٢ - ١٢٨.

بغداد، بعد أن أعلنت الإمبراطورية العثمانية دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا.

وقد هبّ العلماء لمواجهة الغزو الإنكليزي، فيما راحت بريطانيا تبذل قصارى جهودها في الوصول إلى بغداد واحتلالها.

وفي هذه الفترة، شنت الجيوش العثمانية هجوماً على بلاد القفقاز، وكانت القوات البريطانية التي تخوض حرباً ضارية مع الجيوش العثمانية في العراق قد احتلت بغداد؛ إذ سقطت المدينة في ١١ آذار ١٩١٧، وراحت تواصل تقدّمها باتجاه الموصل.. أما قوّاتها في إيران فقد ارتأت مرافقة القوّات الروسية التي استدعيت إثر ثورة أكتوبر بعد إعلان روسيا انسحابها من الحرب العالمية.

كانت أهداف الإنكليز تتلخص في ملء الفراغ الذي ينجم عن مغادرة الروس إيران، وانتهاز هذه الفرصة لتشديد قبضتها على إيران بأسرها، والتقدم لاحتلال القفقاز لمنع التقدّم الألماني في آسيا.

وكانت الثورة الروسية قد أربكت الأوضاع في تلك المنطقة، وسادت الفوضى القوات الروسية في إيران خاصّة بعد الصراع على السلطة بين البلاشقة والمناشفة، والذي أسفر عن انتصار لينين زعيم البلاشقة، فأعلنت حكومة الثورة خروجها من التحالف الذي كان قائماً بين حكومة القيصر وبريطانيا، وهكذا وجدت ألمانيا الطريق مفتوحة إلى الهند، وكذلك الاستفادة من منابع النفط في القفقاز.

وبعد استدعاء القوات الروسية للعودة إلى روسيا، راحت تنهب في طريق انسحابها وتضرم النار في بيوت الأهالي العزّل، مما دفع بقوات الغابة إلى قطع الطريق عليها والاشتباك معها وإرغامها على دفع تعويضات للمتضرّرين.

وقد ترك هذا الانتصار الحاسم صداه في إيران مما جعل الناس ينظرون بأمل إلى ميرزا الثائر الإيراني المسلم.

وفي تلك الفترة، كانت الحكومة الإيرانية تعيش الحضيض في ضعفها،

فانبرى بعض المخلصين إلى تشكيل حكومة مؤقتة مهمتها الدفاع عن البلاد، وكان في طليعة أعضائها الشهيد حسن مدرس، وقد أخفقت الحكومة المؤقتة في نضالها ضد القوّات الأجنبية، فهاجر أعضاؤها إلى تركيا.

وفي شمال إيران، وجهت القوّات البريطانية بالتحالف مع القوات الروسية إنذاراً إلى ميرزا كوجك خان بإخلاء الطريق إلى القفقاز، وكان الإنكليز قد وظّفوا القائد الروسي المتعاطف مع المناشفة في خدمتهم في التفاوض مع ثوار الغابة، وحدّدت مدّة الإنذار بـ ٤٨ ساعة، ولكن الإنكليز وكعادتهم في الغدر وانتهاز الفرص، باشروا الهجوم بعد ٢٤ ساعة فقط مستخدمين قوّاتهم الجوّية بشكل مكثف، وتقدمت الدبابات الإنكليزية، وحدثت معارك ضارية في منطقة منجيل؛ حيث تكبدت قوّات الغابة خسائر جسيمة.

اتفاقية ١٩١٩

وفي آب ١٩١٩، عقدت حكومة (وثوق الدولة) معاهدة مع بريطانيا جاءت في الواقع استجابة لخطط إنكليزية في الحكم غير المباشر الذي كان برنامجه يسير حثيثاً في تركيا وإيران والعراق.

وكان النفوذ الديني قد شهد انحساراً على الصعيد السياسي، وقاد حسن المدرس، الذي انتخب مرّة أخرى عضواً في البرلمان، معارضة عنيفة ضد الاتفاقية التي صادرت استقلال إيران بشكل مذلّ.

وفيما كانت الحكومة العميلة تهتز تحت وقع ضربات الثوار في گيلان وأذربيجان، وفي داخل البرلمان، كان الإنكليز في طريقهم إلى صناعة (البطل القومي) على غرار ما يحدث في تركيا في شخص مصطفى كمال!

ووجد الإنكليز ضالتهم في ضابط الصف في فرقة القوزاق الإيرانية التي تركها القائد الروسي عائداً إلى وطنه.

وقد استخدم الإنكليز نفوذهم في تعيين رضا خان ميرپنج ليكون قائداً للفرقة المذكورة التي تحركت في منتصف ليلة ٢٢ شباط ١٩٢١ ليفاجئ طهران بانقلاب عسكري بالاشتراك مع ضياء الدين رجل الإنكليز وألعوبتهم.

وهكذا أصبح الأخير رئيساً للوزراء؛ ورضا خان وزيراً للحرب وقائداً للجيش.

وقد ظلت اتفاقية ١٩١٩ سرّاً من أسرار تلك الحقبة المثيرة من تاريخ إيران السياسي، إذ فقدت ولم يعثر على نسختها الأصلية حتى اليوم!!

ويبدو أن الإنكليز قد احرزوا نجاحاً في صناعة بطلهم القومي الذي راح يشق طريقه إلى الحكم المطلق بسهولة ويسر منفّذاً خطة بريطانيا العظمى في الحكم غير المباشر للبلدان المقهورة بعد الحرب العالمية الأولى.

كان أحمد شاه قد استفظع الاتفاقية المذكورة ورفض التوقيع عليها، فأضمر الإنكليز الإطاحة به في أول فرصة، وكانت الخطوة الأولى إجباره على إقالة ضياء الدين وتنصيب رضا خان رئيساً للوزراء.

وتجسدت الخطوة التالية بمشروع تقدّم به رضا خان إلى المجلس يقضي بإلغاء الحكم الملكي واستبداله بالحكم الجمهوري.

ولم تكن فكرة الجمهورية سوى ذريعة من أجل تأسيس نظام جديد بزعامته.

وينبغي أن نذكر أن الفترة التي أعقبت الانقلاب الأسود وتعيين رضا خان وزيراً للحرب قد شهدت معارك طاحنة في الشمال الإيراني بين قوّات القوزاق الحكومية وقوّات ميرزا كوجك خان.

وكان التمزّق بسبب حوادث مؤسفة وخيانة بعض الأجنحة في قوات الثورة قد عجّل من قهر قوّات الغابة التي انتهت تماماً بعد سقوط ميرزا كوجك خان في الثلوج بعد أن تاهت به السُبُل وهو في طريقه إلى خلخال.

وبعد هذه الفترة، وفيما كان رضا خان يواصل تعزيز موقفه بمساندة الإنكليز،

كان «مدرس» يواجه محنته بعد أن أصبح صوته المدوّي وحيداً في مجلس الشورى.

وقد نجح رضا خان لدى زيارته العلماء المبعدين من العراق (السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني) والتباحث معهما في فكرة الجمهورية في إيران ورغبتهما في التخلّي عن هذه الفكرة، نجح في تعزيز مكانته لدى العلماء، والإيحاء إليهم بأنه يقدّس الإسلام ويكنّ للعلماء بالغ الاحترام.

ولذا؛ فقد ظهر اتجاهان داخل علماء الدين: اتجاه معاد لرضا خان بسبب علاقاته المشبوهة بالإنكليز وكان مدرس يقود هذا الاتجاه بشجاعة فريدة.

واتجاه آخر مؤيد لرضا خان واثق من طاعته للعلماء، وكان النائيني في الطليعة وبعده يأتي السيد أبو الحسن الأصفهاني، اللذين وجدا فيه بديلاً مناسباً لأحمد شاه، وكان الأخير في وضع لا يحسد عليه.

وكانت الضربة القاضية - إذا صح التعبير - هي في قيام رضا خان بزيارة سرّية للنجف الأشرف ولقائه النائيني والأصفهاني اللذين ودعهما في قم في آذار ١٩٢٤ بعد سماح الحكومة العراقية لهما بالعودة شريطة عدم التدخل في الشؤون السياسية[١].

وكان رضا خان سخياً فيما يبدو في منح الوعود والمواثيق في طاعة العلماء وفي استئناف الحياة الدستورية بالطريقة التي تضمن للمجتهدين إشرافهم على اللوائح القانونية وعدم معارضتها للشريعة.

وفي مقابل ذلك، أصدر كل من آية الله النائيني وآية الله أبي الحسن الأصفهاني فتوى مشتركة حرّما فيها معارضة حكم رضا خان[٢].

وكانت الفتوى بمثابة قنبلة فجرّها رضا خان لنسف حكم القاجار الذي

---

١. شعراء الغري للخاقاني ٤ - ٣٠١.

٢. تاريخ العراق السياسي ٢ - ١٢٥.

امتدّ من سنة ١٧٧٩ وحتى سنة ١٩٢٥، ومن ثم التأسيس لسلالة جديدة تمثلت بالحكم «البهلوي»، وليحتفل السفير الإنكليزي في طهران وليشرب نخب النصر في بسط النفوذ البريطاني دون منازع من وراء الكواليس[١] إلى حين!

هذا هو باختصار خلاصة المشهد السياسي في إيران منذ صيحة الأفغاني وحتى نهاية الحكم القاجاري؛ من أجل أن نكتشف موقع ثورة الغابة وأخلاقية الثائر، ودور الأحداث العالمية والظروف في إطفاء تلك الشعلة المتوقدة التي ظلّت تتوهج لتمزيق الظلمات الثلاث: الاحتلال الروسي، الهيمنة الإنكليزية، والفساد الحكومي مدّة سبع سنين.

١. نجح الإنكليز في إقامة أنظمة قوّية وموالية لهم في كل من العراق سنة ١٩٢١ بعد الالتفاف على الثورة الشعبية، وفي إيران سنة ١٩٢١ بعد الانقلاب العسكري بقيادة رضا خان، وفي تركيا سنة ١٩٢٢ بسقوط الخلافة العثمانية، وحتى في أفغانستان سنة ١٩١٩ بتولّي أمان الله خان الحكم واتجاهه نحو الغرب.

الفصل الأول: ١٩١٤ ـ ١٩١٧

«.. إنه التحدّي الذي يغوص في أعماق البشر.. وهناك وفي لحظة مصيرية يتجلّى الإنسان وتتبلور معادلته.. فإذا هو مهزوم أو ثائر، خانع أو شهيد».

ميلاد رجل

لا تشتعل الثورة في الفراغ، ولا تولد من عدم، كل وهج مقدّس يتفجرّ ويتشظى، إنما هو غضب مكبوت، غضب متراكم عبر السنين.

ألَم مخزون.. وشعور بالمرارة، تلك هي البداية.. بدايات الغضب الذي يتحول إلى قنبلة موقوتة.. تتنظر..

أجل؛ تنتظر الصاعق.. الشرارة.. التي تفجر ذلك المخزون الهائل من العواطف.. عواطف الإنسان الذي ينشد حلمه الضائع وحقه في الحياة الكريمة والحرّية..

ها هي طهران ١٩١٤ مثل كل مدن الشرق المسلم تترقب مشدوهة لما يجري في العالم.. دوّي المدافع وأزير الرصاص ودخان الحرائق المجنونة.

وحينئذ تهتز الثوابت بشدّة، وتضرب الزلازل الأرض والإنسان.

الحركة الدستورية، التي قدّم الشعب الإيراني من أجلها خمسين ألف إنسان، تتحول إلى أداة بأيدي الساسة الإنكليز. أمّا أولئك الذين أرادوا للحركة الدستورية أن تكون في ظلّ شريعة الله، فقد هزموا في الجولة الأخيرة.

اغتيلوا برصاص الغدر، أو قذفوا خارج الوطن، أو شنقوا في ميادين العاصمة، بعد آلاف الدسائس والمؤامرات.

ويعود ميرزا كوجك خان إلى طهران بعد أن التأمت جراحه في الحركة الدستورية؛ يعتصر الألم قلبه الكبير لما يشهد من تجاوزات الحكم، ولما يراه من عدوان على القيم الإنسانية والإسلامية.

ثم تأتي المجاعة لتزيد الأشياء ظلامية، وتبعث في النفس شعوراً بالإحباط أو الغضب.. الهزيمة أو الثورة.. إنه التحدّي الذي يغوص في أعماق البشر.. وهناك وفي لحظة مصيرية يتجلّى الإنسان وتتبلور معادلته، فاذا هو مهزوم أو ثائر، خانع أو شهيد.

وفي تلك الساعة من القدر، وفيما وقفت الحكومة عاجزة تماماً أمام اجتياح الجيوش الأجنبية الأرض والناس، وفيما كان «أحمد شاه» يفكر بنقل العاصمة من طهران إلى أصفهان، كان ميرزا كوجك خان يقف على أعتاب لحظة مصيرية في حياته..

إنه الآن وجهاً لوجه أمام التحدّي.. التحدّي الذي لا ينفك يسحق بقسوة ويترقب استجابة بشكل ما.

وكان قرار الرجل، الذي بلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، أن يمضي ليرى بمَ يفكر الأحرار.. ترى من يكون ذلك ميرزا كوجك خان؟ الذي يدور في شوارع طهران حائراً يبحث عن ثمار كل تلك الدماء التي أُريقت من أجل الحرّية والاستقلال والكرامة والوطنية؟

في عام ١٨٧٧م ١٢٩٨هـ ولد «يونس» في مدينة رَشت عاصمة إقليم گيلان في الشمال وفي أُسرة متوسطة تعيش في محلة تعرف بـ «استادسرا».

بدأ دراسته الابتدائية في مدرسة «حاجي حسن» في أحياء رشت.

ومنها إلى مدرسة «مسجد جامع» ليرتدي الزي الديني، ثم ليستكمل دراسته في مدرسة «محمودية» في طهران، وكان من الطبيعي أن يصبح فيما بعد إماماً في مسجد ما أو يواصل دراساته الدينية ليصبح مجتهداً يفتي في مسائل الحلال والحرام.

غير أن الأقدار كانت تدفعه باتجاه آخر.. باتجاه الحوادث المزلزلة التي تصنع التاريخ والإنسان.

وبالرغم من عنف الحوادث العاصفة، فإن أشياءً وقيماً في شخصيته ظلت ثابتة بل كانت تزداد تألقاً مع الأيام كما الجمر يزداد توهجاً كلما اشتدت الرياح..

ظل «يونس» أو «ميرزا» كما اشتهر فيما بعد هو هو بأدبه الجم وتواضعه وإيمانه بالمثال الأخلاقي وحبّه العميق للوطن والهويّة.

لم يتزلزل شيء منها كما لم يتغير لون عينيه اللتين تشبهان البحر زرقة وإرادته التي تكاد تلوي عنان القدر.

عرف ميرزا بصراحته وتعصبه للعدالة والحق وانحيازه المطلق للمقهورين والمظلومين، ولم يكن ذلك مجرّد شعار في حياته بل كان يستخدم قبضته الحديدية في إيقاف المعتدي عند حدّه.

يحبّ الرياضة ويمارسها يومياً، لم يعاقر أي نوع من المشروبات الكحولية كما لم يدخن ولم يقترب من «التریاك» الذي جرف الكثيرين في طريقه.

وكان في طليعة كل ذلك على جانب كبير من الحياء.. الحياء الذي منعه

ربّما من الإقدام على الزواج[1].. وربّما تأثراً بسيرة مثَله الأعلى «الأفغاني».

عرف ميرزا بصمته وهدوئه، فإذا تحدّث تبسم، وربّما مزج حديثه بطرفة ومازح محدّثه.

وتنطوي شخصية ميرزا على محتوى ثري من الروح الدينية التي صنعت منه إنساناً حرّاً يرى في النموذج الأخلاقي الرفيع انتصاراً لا في سياسة الحديد والنار، ولهذا كان رحيماً مع الجميع حتى مع الذين نصبوا له العداء والذين غدروا به.

وخلال حياته في الغابة، اشتهر عنه ترديده لآيات قرآنية ذات دلالات خاصّة؛ إذ كان يقرأ بين الظهرين والعشائين: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

يحبّ الشعر.. وكان يتغنى بأشعار تنطوي على حِكم وأمثال حول الرجال وتقلب الزمان، اهتم في مقطع تاريخي من حياة الثورة بأشعار فردوسي خاصّة ملحمته المعروفة لما تنطوي عليه من مخزون وطني يمكنه بعث روح المقاومة في جنوده. وربّما ضاقت نفسه وهو يتطلع إلى الأفق فيراه مظلماً، فيمتطي صهوة جواده ممعناً في عمق الغابة..

كما لا ننسى أن البيئة التي نشأ فيها قد بلورت ولا شك جانباً من شخصيته، فگيلان هي أرض المطر.. المطر الذي يتساقط باستمرار في أغلب أيام السنة.

فالصبي الذي كان يركض تحت المطر وقدماه تخوضان البِرَك وتعبران السواقي حيث الدوائر والفقاعات والوشوشات التي يحدثها المطر قد أثارت في نفسه الغضة أحلاماً ورؤى.

ودويّ الرعود والبروق في الغابات قد طرد من نفسه الخوف من الأشياء إلاّ

١. تزوج ميرزا كوجك خان في السنوات الأخيرة من حياته. سردار جنگل - ٣٧.

من شيء واحد هو الله.

كان له دور في الحوادث التي عصفت بالبلاد إبّان حركة المشروطة، واشترك آنذاك في احتلال قزوين.

التحق بصفوف الثوار الذين زحفوا باتجاه طهران واحتلوها. وعندما أثار محمد علي شاه قبائل التركمن التحق، بصفوف القوّات التي هبّت لمساعدة «ستار خان»، وأصيب برصاصات أثناء المعارك.

وقد نقل الجريح إلى روسيا بأوامر من محمد علي شاه الذي أصدر أوامر سرّية بإلقائه في مياه البحر ليكون طعاماً للحيتان.

ولكن قائد السفينة والطبيب لم ينفذا رغبة الشاه وعكفا على مساعدته؛ حيث أرسل إلى بادكوبه (باكو)، كما مكث في تفليس ليعود إلى گيلان، وتزامنت عودته مع القضاء على اضطرابات التركمن.

وما لبث القنصل الروسي في رشت أن أصدر أمراً بنفي ميرزا إلى طهران بسبب نشاطاته التحررية.

وقد أبدى ميرزا امتعاضه من تجاوزات الحركة الدستورية، وامتنع عن استلام معونات من بعض زعاماتها العسكريين بالرغم من ظروفه المعيشية العسيرة.

وفي تلك الظروف العاصفة عندما استيقظ العالم على دوي الحرب العالمية الأولى.. كان ميرزا في طريقه إلى غابات الشمال، ليتمخض القدر عن ثورة رجل لا يعرف الخنوع.

إن ما سيرد من وقائع الثورة هو باستناد إلى الكتاب الوثائقي الوحيد «سردار جنگل» للأستاذ إبراهيم فخرائي، والذي صدر سنة ١٩٦٤، والى كتاب بعنوان «نهضت جنگل»، ويشتمل على مجموع الوثائق والتقارير السرّية التي تتعلق بها، وقد صدر سنة ١٩٩٢، وهو الكتاب الذي حفّزني للكتابة عن الثورة في خطوة

لإثراء المكتبة التاريخية العربية.

ولا أنسى الإشارة أيضاً إلى ما نشر في الصحافة الإيرانية من جدل حول الثورة، وهو ما يكشف عن أهمية ذلك المقطع التاريخي نظراً للملابسات التي رافقته وعمق التحولات العالمية التي تزامنت معه وكان لها تأثيرها فيه.

گيلان.. غابات ومطر

في مناطق الشمال الإيراني، ترسم الطبيعة لوحة رائعة؛ حيث تجتمع السهول والجبال والبحر في لقاء فريد، ثم تأتي الغابات الكثيفة التي تغطي مساحات شاسعة من الشمال، لتجعل من تلك المنطقة من العالم، حيث تنمو آلاف النباتات، قاعدة جغرافية للتاريخ.

ولقد شاء القدر أن تشتعل في أعماق ميرزا كوجك جذوة الثورة لإنقاذ الوطن المقهور من محنته.

وفي زمن شهد - ومع الأسف - اهتزاز القناعات الدينية وطغيان الروح المادّية التي عززّ من تأثيرها إنجازات العلم التجريبي، في مثل هذا المقطع التاريخي، فإن ثورة إنسان يجعل من الأساس الديني والدعوة إلى تضامن واتحاد الشعوب الإسلامية، مهمّة شاقة ومستحيلة، سيما وأن التيار الديني كان في عدّه العكسي بعد اختراق الحركة الدستورية وهزيمة الإمبراطورية العثمانية ونجاح السياسة الإنكليزية في أقاليم إسلامية من الشرق المسلم.

هل كان ميرزا كوجك خان مغامراً؟

هل كان ثائراً رومانسياً؟

أم كان ثائراً مؤمناً بدينه واثقاً من صحوة شعبه وأمته؟

إن مسار الثورة، ومواقف ذلك الثائر، هي وحدها التي سترسم بوضوح

شخصيته الملحمية ووفاءه للمبادئ التي آمن بها وضحى في سبيلها.

وعندما ارتفع الجدل في الأوساط الوطنية في طهران حول الوسائل الكفيلة بوقف حالة التداعي التي تعيشها البلاد، وقف ميرزا إلى جانب الذين ينادون بالثورة المسلحة، واستخدام القوّة لردع الأجانب، ووقف الذين يسحقون حقوق الشعب عند حدودهم.

لم يكن ميرزا وحيداً في اتخاذ قرار الثورة والانطلاق إلى الشمال، كان معه رفيق جهاد في الحركة الدستورية «المشروطة» هو «علي خان» الذي حصل على لقب الزعيم الفاتح.

ولكنه شأنه شأن ميرزا لم يغرّه هذا الوسام الفارغ، ولم يعمِ عينيه ما يشاهده من تجاوزات زعماء «المشروطة» الذين أصبحوا حكاماً في طهران وأدوات بأيدي السفارة البريطانية ولهذا انطلقا صوب الشمال إلى أرض الغابات والمطر.

كان «علي خان» من أهل مازندران الإقليم المجاور لگيلان، وقد حاول أن يقنع «ميرزا» بأن غابات مازندران ومعرفته الدقيقة بطبيعة الأرض هي القاعدة المثلى لانطلاق الثورة.

أما ميرزا، فكان يرى في گيلان أرض الثورة والثوار والغضب المخزون الذي ينتظر من يفجرّه.

وفي تلك النواحي؛ أي في مازندران، يفترق الرفيقان؛ حيث يواصل ميرزا طريقه متوجهاً إلى «لاهيجان»، وهناك يلتقي طبيباً سيكون له شأن في الثورة هو «الدكتور حشمت»، وكان يمارس مهنته في تلك المدينة، وينطلق ميرزا صوب «رشت» عاصمة إقليم گيلان، فيدخلها على حين غفلة من أهلها واضعاً وبشكل عملي حدّاً لنفيه من مسقط رأسه بقرار من القنصل الروسي[1].

١. كان القنصل الروسي قد أصدر قراراً بإبعاد ميرزا كوجك خان عن رشت مدّة خمس سنين!.. سردار جنگل - ٢٨.

مدينة رشت.. مدينة الغضب المخزون، أرض البروق والرعود والغابات والمطر.. في هذه المدينة التي يحكمها الروس بالحديد والنار هنالك جذوة متوقدة ولكن تحت الرماد، وهنالك رجال في أعماقهم يسكن هاجس الثورة والتمرّد.

ويسعى بعض ذوي النفوذ التقليدي لدى القنصل باستحصال موافقة على عودة ميرزا إلى رشت.. ميرزا الذي يعيش حتى تلك اللحظة متوارياً عن الأنظار، بينما يسدر الحكام والخونة في حياة لاهية.. حياة مثقلة بكل الرذائل البشرية.. إرهاب وقمار، وعربدة وسكر.. ولواط..

وگيلان الحزينة تبكي.. المطر ينهمر.. كسماء تبكي والبروق والرعود تدوّي لكأنها تريد أن تشعل الثورة في الجذور.. جذور الإنسان الذي ينبغي أن يحيا حرّاً لأنه ولد حرّاً.

ويكتشف بعض الأحرار أن هذا المنفي العائد إلى مسقط رأسه لم يتعب بعد.. لا تساوره وساوس الركون إلى حياة الدعة والهدوء.

ما تزال في أعماقه ثورة، وما يزال بريق غاضب يموج في عينيه الصافيتين، وتشهد الليالي تجمعات صغيرة في مكان ما، وتبدأ كلمات الثورة تخرج عن إطار الإشارة إلى إطار التصريح والتفكير في نقطة الانطلاق وخطط المواجهة، ولا شك أن الوجود الروسي الذي يجثم في الشمال كنسر في مساء خريفي كان هو الهمّ الأول.

وفي خطوة أولى للانطلاق بالثورة من الفكرة إلى واقع العمل والحياة، يتجه ميرزا إلى «نهزم» للقاء «محمد تقي خان» من أصحاب النفوذ والملاكين، وممن تشمّ فيهم رائحة الوطنية والحميّة للدين والأرض.

ولم تكن مبادرة ميرزا شخصية أو وليدة قناعة ذاتية، وإنما استجابة لرفاقه الذين التفّوا حوله وآزروه في حركته الثوريّة.

وقد أسفر اللقاء عن نتائج سلبية؛ إذ سرعان ما انكشف ذلك الوقار الظاهري لتقي خان عن جرذ خائف في الأعماق، فإذا بالأخير لا يطلب من ميرزا مغادرة

«نهزم» فحسب؛ بل التخلّي عن قراره الخطير في مواجهة الروس حكام الشمال الإيراني بلا منازع.

إنّها الرغبة البشرية في حياة الدعة التي يركن إليها الكثيرون غير مكترثين لما يجري حولهم من أهوال، ولما يعانيه الناس البسطاء الذين يداسون تحت أحذية الأجنبي حتى درجة الانسحاق والهوان.

ولهذا؛ أنهى تقي خان اللقاء بسرعة قبل أن تتناهى إلى أسماع القنصل الروسي أنباء اجتماعه مع ميرزا «المنفي» بتهمة «الشغب» و«إثارة القلاقل» في گيلان التي بدت وكأنها قد أسلست قيادها تماماً..

وقد اعتبر ميرزا من رحلته التي عاد منها خالي الوفاض من أي دعم؛ بل إنه سمع كلاماً أشبه ما يكون بالوعيد والتهديد.. ولهذا؛ حذف من ذهنه ومن أذهان رفاقه أيّة فكرة من هذا القبيل.. إنه لا يمكن الاعتماد إلاّ على الذات وعلى سواعد المقهورين؛ لا أصحاب الثراء والملاّكين وإن كانت لهم سمعة حسنة؛ فالثورة لا تشتعل في بيوت المترفين.. إنّها هناك في قلوب المقهورين والمعذبين.. في زوايا الأكواخ، وفي طوايا الزنزانات والسجون، وفي أعماق النفس الإنسانية الحرّة التي تنشد الحياة الكريمة.

وهنالك ولّى ميرزا كوجك خان وجهه شطر الغابة مخزن الرجال الأشداء والإرادة التي لا تعرف الانثناء.

كانوا سبعة عشر!

فيما كانت قوات روسيا القيصرية بقيادة الجنرال «بارتوف» تواجه التقدّم الألماني العثماني في حدود همدان، إذا بتقارير مقلقة تتحدث عن ظهور رجال مسلحين في الغابات، وبالرغم من أن عددهم لم يكن ليتجاوز سبعة عشر رجلاً، ولكنّ أملاً بدأ يلوح في الأفق، ووجد السكان أنفسهم وقد هوت قلوبهم تلك النقطة المضيئة في قلب الغابات في الجنوب الغربي من مدينة رشت.

شعر الروس بالخطر، وطلب القنصل الروسي الحاكم الفعلي لگيلان من «حشمت الدولة» حاكم گيلان بالاسم بإخماد الشعلة قبل أن تتحول إلى حريق هائل.

لقد بدأت ثورة في الغابة، ثورة تتجسد في رجال سبعة عشر.. ولكن الآمال الكبيرة وروح التضحية تجعل من كل ثائر جيشاً بأسره.

بدأت غارات الثوار تهدد مراكز الروس وتسلبهم حلاوة النوم.

وعندما نجح الثوّار في تحرير امرأة إيرانية[1] كانت في أسر الروس، ترك الحادث صداه في گيلان كلّها، لم يعد الروس أحراراً في كل ما يشاؤون.

وها هي گيلان تستيقظ على رصاصات يطلقها الثوّار لكأنهم يريدون أن يوقظوا أُمّة من سبات عميق.

وتشرق وجوه الفقراء في گيلان الحزينة، وتسود وجوه الذين أترفوا الذين يعيشون على جهود البسطاء والمعذبين.

وكان أول ردّ فعل روسي ورد في وثائق وزارة الخارجية هو تقرير القنصل الروسي في گيلان «لوسينكو» والذي يتحدث عن الثوار واصفاً إيّاهم بالأشرار واللصوص مطالباً الحكومة الإيرانية التصدّي لهم وقمعهم[2].

---

١. تعتبر هذه العملية باكورة العمل المسلح في ثورة الغابة التي ألهبت الضمير الگيلاني لأسباب أخلاقية ـ - سردار جنگل - ٦٣.

٢. يتحدث تقرير القنصل الروسي عن ظهور مجموعة من «الأشرار» بقيادة ميرزا كوچك خان في منطقة «نرگستان» المليئة بالمستنقعات:
«ومن المحتمل أنه في مكان ما من المستنقعات، ينهمك بجمع السلاح والرجال، ولم تتخذ حكومة گيلان إجراءً بهذا الصدد.. لذا؛ نرجو من الحكومة الإيرانية التصدّي لميرزا كوچك وقمعه.. ولقد سبق أن حذرت قنصليتنا واقترحت استئصال الخطر قبل استفحاله..
إن ما يلحق من أضرار بالرعايا والمؤسسات الروسية سوف تتحمل مسؤوليته الحكومة الإيرانية..
يعتبر هذا التقرير وثيقة رسمية؛ نرجو من أولياء الأمور في الحكومة العليّة الاهتمام بما ورد فيها».

وكانت فِرق البحث للكشف عن مكان الثوار تعود بالخيبة، مما يدلّ على تعاطف كامل للشعب مع تلك الحركة المسلحة التي ستعلن عن نفسها بـ «هيئت اتحاد إسلام».

لقد كان ميرزا الذي بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً موفقاً تماماً في انتهاجه أسلوباً مبتكراً في إشعال الثورة، عندما عمد إلى صنع بؤرة ثورية من خلال إعلانه الثورة رغم قلة أنصاره.

وكان مصيباً أيضاً في اختيار الثوار الذين كان معظمهم أو جميعهم من الفلاحين والمحرومين والفقراء. فهؤلاء وحدهم الذين يمضون في الطريق الشائك حتى النهاية؛ لأن أذهانهم خالية تماماً من كل وسائل التبرير التي يمتلكها بعض المثقفين.

ولقد بلغ من حماس الثوار أنهم أقسموا ألا يصلحوا وجوههم وذقونهم إلا بعد تحرير الوطن من رجس العدو الأجنبي، ولذا فقد بدوا بعد فترة طويلة من مسيرة المقاومة في أشكال مهيبة بشعورهم الكثيفة ولحاهم الطويلة وأزيائهم الفريدة المصنوعة محلّياً في الغالب.

كما أن إيمان القائد الديني ذلك الإيمان الوجداني قد رسّخ ولا شك احتراماً عميقاً في نفوس جنوده، وأودع بذرة الحب في قلوبهم.

فقد عرف عن ميرزا تدينه العميق، كما عرف عنه أنه كان يردد آيات من القرآن الكريم بين صلواته اليومية آيات لها مدلول خاص.. كشموع تضيء الطريق له ولرفاقه[1].

نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرية» ٥ - ١.

الوثيقة رقم ٢ - المؤرخة في ٢٢ آب ١٩١٥.

١. عرف عن ميرزا كوجك خان أنه كان يردد بين صلواته اليومية هذه الآيات: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿قُلِ اللّٰهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فى سَبيلِ اللهِ اَمْواتًا بَلْ اَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

سردار جنگل - ٣٨. ميراث ماندگار - ١٤٨.

دروب الثورة

مرّت ثورة الغابة بأربع مراحل أو منعطفات كان للتغيرات العالمية دور مؤثر ومصيري:

المرحلة الأولى: وتبدأ منذ انطلاقتها سنة ١٩١٤ متزامنة مع اشتعال الحرب العالمية الأولى واجتياح الجيوش الأجنبية لإيران.

أما المرحلة الثانية؛ فتبدأ مع انتصار ثورة أكتوبر في روسيا سنة ١٩١٧ وما تركته هذه الثورة من آثار إقليمياً وعالمياً.

فيما تبدأ المرحلة الثالثة بعد استسلام أحد رموز الثورة للحكومة المركزية سنة ١٩١٩.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة؛ فتبدأ مع الانقلاب الشيوعي ضد قيادة ميرزا وتفجر الصراع المسلح داخل قوّات الثورة؛ مما دفع بالإنكليز إلى تدبير مؤامرة انقلابية عبر عملائهم في خطّة احتلال قوّات القوزاق لطهران وتشكيل حكومة عسكرية للاستفادة من هذا الصدع والانقضاض على قوات ميرزا كوجك خان، وهو الفصل الذي انتهى بمصرع قائد الثورة في عواصف ثلجية وظروف طبيعية قاسية.

وفي المرحلة الأولى التي تمتد ثلاثة أعوام، يشكل الثوّار تحدّياً جدّياً للوجود الروسـي، ويتسببون في إحراج الحكومة المركزية؛ لأن مجموعة من الثوّار وبأسلحة بدائية سجّلوا انتصارات باهرة على الروس وعملائهم في گيلان، فيما تقف القوّات الحكومية عاجزة عن حماية أرواح الأهالي وصيانة استقلال البلاد من التهديدات الأجنبية.

الغابة.. أعراس ومآتم

حاول الروس في البدء أن يلعبوا من وراء الستار؛ ذلك أن الثورة لا تهدد الوجود الروسي فقط، فهناك من الإيرانيين أنفسهم من سينتفض ليقدّم خدماته

للأجنبي حفاظاً على ثروتـه والأسلاب التي حصل عليها في ظل الاستبداد الحكومي والتعسّف.

وفيما كان «حشمت الدولة» حاكم گيلان يسعى جاهداً لتهدئة الأوضاع، كان الروس يحركون بيادقهم باتجاه الغابة حيث يكمن الرجال الأشداء.

وكان «عبد الرزاق شفتي» أحد الشخصيات المتنفذة هو بداية الاصطدام المسلح على نطاق واسع، وهو رجل تتجسد فيه روح الشرّ؛ رجل بدين مع شارب مفتول، واستهانة بأرواح الناس قد أكّد للقنصل الروسي أنه سيلتهم التمرّد كما يلتهم ثمرة تين ناضجة.

ويتحرك عبد الرزاق مع قوّاته باتجاه غابات فومن في الجنوب الغربي من رشت.

وعلى بعد ستة كيلو مترات من رشت، كان الثوّار يكمنون لمرتزقة الأجنبي، وقد بوغت عبد الرزاق الذي فضل الفرار بعد مصرع بعض رجاله المعروفين بالإقدام!

ولقد كان لهذا الانتصار دويه في أنحاء گيلان خاصّة في رشت ولاهيجان التي تقع في شرق رشت، الأمر الذي دفع بالكثيرين من أهالي گيلان إلى التوجّه إلى الغابة والإعراب عن اعتزازهم بالثورة والثوّار وعرض خدماتهم.

ومن هنا؛ يمكن القول إن كوجك خان كان موفقاً في إقدامه على الثورة مع قلة أنصاره؛

ذلك أن الإقدام وتجسيد العمل الثوري هو وحده الذي سيتكفل في نموّه وتصاعده.

فبعد هذا الانتصار أظهر حزبان صغيران كانا يعملان في رشت هما «الحزب الديمقراطي» وحزب «الاتحاد والترقي»، أظهرا تأييدهما لحركة كوجك خان والتحق بعض أعضائهما بالغابة.

الأمر الذي جعل المتنفذين في گيلان ينظرون بجدّ إلى تلك «الحفنة من العصاة»، وأن يحسبوا لها ألف حساب.

القوّة والاستقامة

كثيرون جدّاً من نسوا أهدافهم بعد سكرة النصر.. وكثيرون أيضاً ممن ينسون أنفسهم في غمرة الحوادث، ولكن ميرزا ليس من صنف أولئك ولا هؤلاء.. كان شعاره القوة والاستقامة.. قوّة الحق.. والاستقامة مهما كانت النتائج، ولعلّ عظمة ذلك الثائر تأتي من بقائه هو هو بالرغم من الأحداث العاصفة وظلمة الطريق وغدر الرفاق.

وهزيمة لبيدق آخر

وبعد هزيمة «الشفتي»، نرى انتهازياً آخر يبحث عن الفرص، يغتنم هذه الظروف ليتقدم إلى القنصل الروسي عارضاً عليه خدماته.. ولم يكن «مفاخر الملك» سوى ذلك الإنسان المغمور الذي وصل رشت باحثاً عن لقمة للعيش[1]، وراح يتدرج في حياته منتهزاً الفرص من أجل تحقيق هدفه في حكومة گيلان.

ويتحرك «مفاخر الملك» مع أفراده وفيهم الطامعون والخائفون وبعض الأرامنة أيضاً.

ونظرا لشخصية رئيس الشرطة، فقد كان التحرك الجديد أشبه بمظاهرة لبث الرعب ونوع من الحرب النفسية، بسبب صهيل الخيل ورنين الأجراس وأدوات التعذيب المتعددة الأشكال.

---

١. اسمه في الأصل «محمد علي»، وصل رشت سنة ١٨٩٧م قادماً من أصفهان، بدأ حياته في رشت، كاتب عرائض ويعيش في مرقد لسيدة علوية (يقال إنها أخت الإمام الرضا عليه السلام)، ونظراً لحسن خطه وإنشائه فقد أصبح سكرتيراً لأحد كبار الملاكين ولأخيه، ثم ليصبح مستشاراً للقنصل الروسي الذي قام بتنصيبه رئيساً للشرطة بالرغم من اعتراض الحكومة المركزية، ويعود سبب ذلك إلى قسوته في التحقيق مع الأفراد المشتبه بتعاونهم مع حركة الغابة. سردار جنگل - ٦٨.

اجتازت قافلة الرعب «بسيخان»، «جمعه بازار» لتحط رحالها في سوق في قرية «كسما» المتاخمة لغابات فومن واتخاذها مقرّاً.

كان الثوار يراقبون عن بعد مسار التحرك الجديد حتى وصوله كسما؛ وفي الظلام أغار الثوار على معسكر العدو، وأضرموا النار فيه لتشتعل معركة لمدّة ساعات سقط أثناءها بعض القتلى والجرحى بين الفريقين، وكان الثوار يسيطرون تماماً على الموقف، وأعلن المحاصَرون الاستسلام، ليتحول ذلك الطاغية الصغير إلى فأر مذعور زائغ العينين يلتمس العفو.

وكان مطلب رئيس الشرطة هو النزول على حكم ميرزا معلقاً آماله على ذلك القلب الرحيم.

وقد أصدر ميرزا أمره بالاحتفاظ به لمحاكمته، ولكن أحد رفاق ميرزا وهو حاجي أحمد كسمائي أشار لابن أخته بتصفيته في الطريق.

واكتفى ميرزا بأن رمق بنظرة عتب رفيقه في النضال؛ وقد ترك هذا الحادث ظلالاً ولا شك على علاقتهما.

كان ميرزا يؤمن بإنسانية الإنسان، ويعلق آماله على الجانب الإنساني في الكائن البشري؛ ولهذا كان ينفذ في القلوب حتى قلوب أعدائه.

وسوف نرى أن حاجي أحمد هذا لن يواصل طريق ميرزا، وسيتخلى عنه في منتصف الطريق «ذلك أن الحوادث هي التي تكشف عن معادن الرجال».

ألقى ميزا خطاباً مؤثراً في أسراه معتبراً إياهم إخوة له بالرغم من عدم توقعه أن يرفع الإخوة في وجهه السلاح؛ ولذا نصحهم بالاستغفار والتوبة وخيرّهم بين الانضواء تحت راية الثورة أو العودة إلى أهلهم، «فإن هدفنا هو بناء الوطن والانتقام من أعدائه»، وقد فضل بعض الأسرى الانضمام إلى الثوّار، فيما رغب آخرون بالعودة، فنصحهم ميرزا أن يفتحوا عيونهم جيداً ولا ينخدعوا بوعود الأجنبي.

نسيم الحرّية

أثبت الثائرون قدراتهم القتالية وشجاعة ومقاومة تنم عن إخلاص للمبادئ واعتداد بالنفس كبير.

وفيما كان ثوار الغابة يعززون من تنظيمهم الثوري وقد وصل عددهم سبعين مقاتلاً، كان القنصل الروسي يفكر بضربة قاضية للقضاء على الثورة قبل أن يستفحل أمرها؛ ذلك أن الخطر يكمن في رشت نفسها في قلوب أهالي گيلان المقهورين إذا ما رأوا أمام أعينهم البطل المنقذ وقد تجسد في رجل منهم اسمه ميرزا.

وكانت خطة القنصل أن يزجّ في المعركة بثلاثمائة من قوات القوزاق الروسي وبخمسين من القوزاق الإيرانيين بقيادة «أبو الفتح خان ياور».

وتتحرك نخبة قوّات القوزاق المدرّبة تدريباً عالياً باتجاه الغابة مجتازين قرية «كسما» دون اشتباك مع الثوار.

وفيما كانت القوات الروسية تواصل تقدمها باتجاه «ما كلوان» على طريق «اشكلن»، كان بعض ثوار الغابة بقيادة كوجك خان يكمنون في مرتفعات «گسكره» تساندهم قوّة من المجاهدين، وعلى اليسار كانت مرتفعات «گلونده رود» الوعرة تاركين نقطة العبور باتجاه «ماسوله» مفتوحة.

وبالرغم من أن المبادرة كانت في أيدي الروس هذه المرّة بعد اكتشافهم مواقع الثوار؛ إلا أن المرتفعات قد منحت المقاومين سلاحاً طبيعياً في الدفاع.

وكان لشجاعة المجاهدين بلا ريب الدور الأكبر في حسم المعركة، التي استمرت لساعات طويلة، لصالح الثوّار، وكانت معركة حاسمة سجلت فيها حركة «هيئت اتحاد إسلام» أول انتصار ساحق على الأجنبي الروسي.

وقد بلغ من عنف وضراوة المعركة أنه لم يتمكن سوى ١٣٤ مهاجماً من الفرار والوصول إلى «صومعة سرا» في الشمال الغربي من رشت فيما قتل أو أسر الباقون.

وقد ضاعف من قدرتهم الحربية ما حصلوا عليه من الأسلحة والخيل التي كان لها دور حيوي في سرعة التحرك والهجوم والمناورات.

كان لهذا الانتصار آثاره في گيلان كلّها، وترك صداه في مجلس الشورى أيضاً، ووجدت حركة «هيئت اتحاد إسلام» التي تطلق الرصاص على الروس أنصاراً ومؤيدين؛ وهبت نسائم الحرّية على گيلان المقهورة.. گيلان الفقراء الرازحين تحت نير الظلم..

أصبحت حركة الغابة ظهيراً للمستضعفين الذين يكدحون في الأرض فلا يجدون ما يأكلون.

والذين يعرفون گيلان.. گيلان أرض الغابات والمطر والزروع.. حيث الأرض كلها عطاء وخير.. الذين يعرفونها سيصابون بالدهشة لهؤلاء المحرومين من الناس.. كيف يتضورون جوعاً في تلك الأرض الخضراء؟!

لقد تحولت گيلان إلى مخازن وأسواق للجيوش الروسية والإنكليزية في أول حرب عالمية مدمّرة.

وفي خطوة جريئة أقدم الثوّار على إطلاق سراح الأسرى من الإيرانيين مقابل كلمة شرف أنهم لن يعودوا إلى قتال وإخوتهم في الوطن والدين والمصير.

وقد رفعت هذه الخطوة الأخلاقية من اسم الثورة عالياً لتترك صداها لدى بعض الوطنيين في الحكومة المركزية.

ولقد هزّ الانتصار الدوائر الروسية التي راحت تخطط لضربة قاصمة وتدارك الأوضاع الوخيمة التي زعزعت هيبتهم في النفوس.

وأصبح الذين يظلمون الفلاحين بالأمس يخافون اليوم.. يخافون رجالاً في الغابة كانوا قد أقسموا على محق الظلم وطرد الأجنبي الجاثم فوق أرض الوطن.

الطريق الدامي

إن مرارة الهزيمة في بعض الأحيان توقظ لدى الثائر أحاسيس النصر، وتطرد من الروح سكرة النصر.. كان الروس يعدّون العدّة لضربة ماحقة، وتمكنوا في النهاية من تحشيد أربعة آلاف فارس من قوّات القوزاق بقيادة «كالتشسكوف» والتقدم باتجاه الغابة تساندهم قوّات المدفعية.

وتتحدث إحدى الوثائق السرّية لوزارة الداخلية عن دعم حكومي لـ «أمير مقتدر» الذي أبدى استعداده في الإسهام بالهجوم الكبير الذي يجري الإعداد له[1].

وتتحدث الوثيقة عن حشود من القوزاق الإيرانيين مع إسناد مدفعي، تتحرك من رشت.

وكانت الخطة تقضي بأن يبدأ «ما ما نوف» القائد الروسي هجوماً على طريق «زنجان ـ ما سوله»[2]، فيما تتقدم قوّات المشاة من رشت بإسناد مدفعي ووضع قوّات الغابة بين فكي كماشة.

وقد أسهمت الظروف الطبيعية في تدهور الأوضاع من سيئ إلى أسوأ، فقد كان الثلج يهطل بغزارة، وقد تعذر على الثوار الاحتفاظ بطريق الإمدادات، وكان البرد قارساً. وخلال الاشتباكات سقط العديد من الشهداء بلغوا أربعة عشر مقاتلاً، فيما وقع بعض الثوار أسرى بيد العدوّ؛ إضافة إلى عديدين لقوا مصرعهم بسبب البرد والصقيع من بينهم شاب يدعى «عنايت» هو ابن أخت ميرزا كوجك.

واضطر المجاهدون إلى الاعتصام بذرى الجبال والكهوف.

---

١. نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية».
وثيقة رقم ٨ المؤرخة في ١٧ ربيع الأول ١٣٣٥ - ١٢ شباط ١٩١٦.

٢. في الجنوب الغربي من رشت، وماسولة مدينة اتخذها كوجك خان مقرّاً له؛ خاصّة في المنعطفات الخطيرة نظراً لموقعها على الحدود بين گيلان وإقليم مازندران.

لقد كانت ضربة قوّية، ولكن الضربة التي لا تقصم الظهر تقوّيه.

إذ مرّت ثلاثة أشهر لم يسمع أحد عن الثوّار إلاّ أنهم ما يزالون يلعقون الجراح ويعدّون العدّة لجولة أخرى، فطريق الثورة طريق دام طويل.

بعد تسعين يوماً من الاختباء خرج الثوّار من مكامنهم ليدوّي أزيز الرصاص مرّة أخرى، وترتفع راية الثورة الحمراء في سماء الغابة.

واستأنف الثوّار عملياتهم، وكان حاكم گيلان «حشمت الدولة» يتعاطف مع الثّوار، فأبرق إلى أحمد شاه مؤكداً له أن لا خطر على الحكومة أبداً وأن الحركة تخدم أهدافاً وطنية.

وفيما كان القنصل الروسي يضغط باتجاه معاكس مطالباً بوضع حدّ لحركة الغابة، صدر مرسوم من الشاه في صالح ثورة الغابة، وانسحبت القوّات الحكومية، فيما غادر حشمت الدولة رشت متوجهاً إلى غابات فومن للقاء ميرزا والاتفاق على وقف العمليات الحربية مقابل ضمانات حكومية بعدم تعرض الروس للأهالي واحترام القانون.

وهكذا تم لقاء فضّل ميرزا عدم حضوره مكتفياً بإرسال رفيقه في الجهاد «الدكتور حشمت» و«محمود كسمائي».

وهكذا أحكم الثوّار نفوذهم على «گوراب زرمخ» وكسما ومناطق أخرى.

وهذا التقدم السريع للثورة حصل بلا ريب بسبب تعاطف الحكومة الوطنية في طهران برئاسة مستوفي الممالك، ويعزو البعض موقف الحكومة المتعاطف إلى تأثير الدكتور حشمت الذي تبادل رسائل عديدة مع «مستوفي الممالك»، وكسب ودّه إزاء أهداف الثورة.

وبالرغم من سقوط حكومة «مستوفي الممالك»، ومجيء حكومة متفاهمة مع الروس، فقد تم توقيع الاتفاق استجابة لرغبة أحمد شاه.

وقد تظاهر القنصل الروسي بارتياحه للنتائج، ولكنه راح يعمل على نسف الاتفاق من خلال تجاوزات على الأهالي والضغط على الحكومة في إقالة «حشمت الدولة» وتنصيب «مفاخر الدولة» حاكماً لگيلان.

وقد استنكرت صحيفة «جنگل» الناطقة باسم الثورة هذه الخطوة.

وكان إقدام الروس في العدوان على الأهالي وقتل الأبرياء قد وضع حدّاً للهدنة؛ إذ قرر الثوّار الانتقام. وسرعان ما أغارت قوّة من الثوار على رتل روسي، وقُتل بعض الجنود.

وقد فجر الحادث الموقف، وبدأت الاستعدادات العسكرية للمواجهة، التي تزامنت مع سقوط الحكومة أيضاً وتنصيب «أمين الدولة» رئيساً للحكومة.

ولقد كان أمين الدولة، وهو صهر مظفر الدين شاه الذي تزوج من الأميرة «فخر الدولة» عمة الملك الصغير، وحصل بسبب ذلك على أملاك واسعة في گيلان، متحمساً أكثر من الروس في قمع الحركة الثورية التي تهدد أملاكه وأراضيه وأماكن لهوه بالخطر.

وفيما كان «أمين الدولة» يعد العدّة ويسلّح فلاحيه الذين يعملون في أرضه، كان الثوّار يباغتونه في قصره ويقتادونه أسيراً إلى الغابة، وكانت هذه العملية الجريئة قد أحبطت مساعٍ حثيثة من قبل الحكومة الجديدة بالتعاون مع الروس للانقضاض على الغابة.

وهكذا؛ أمسك الثوّار بزمام المبادرة؛ إذ أصبحت الحكومة عاجزة عن فعل شيء.

وفي هذه الفترة اتسع نشاط الثوّار، وأصبح لهم مركز في لاهيجان؛ حيث انصرف الدكتور حشمت لإعمار المدينة وانعاش أراضيها ببناء سد في منجيل وإحداث نهر «حشمت رود» الذي أنقذ مزارع واسعة من الجفاف حيث يعمل فيها آلاف الفلاحين.

لقد أصبحت الحياة بالنسبة لأمين الدولة ذلك المترف جحيماً لا يطاق.

فالغابة ليست منتجعاً، إنها مكمن الرجال الأشداء، ولهذا عمل على فك أسره بدفع فدية قدرها ٧٠,٠٠٠ تومان وهو مبلغ كبير.

ولقد أنعشت هذه الفدية الحركة؛ بل وكثيراً من فقراء القرى والأرياف.

وقد جاء وقوع «أمين الدولة» في أسر الثوّار متزامناً مع التقدم الروسي باتجاه «همدان» للتنسيق مع الجيوش الإنكليزية، مما دفع بالجيوش العثمانية إلى الاندفاع نحو أذربيجان وكردستان لقطع الطريق على التقدم الروسي.

وقد حاول الروس والإنكليز توريط الحكومة الإيرانية في الحرب العالمية وإعلان عدائها للعثمانيين والألمان، فصوّت مجلس الشورى ضد المشروع، فعطل المجلس أثر ذلك.

وردّاً على ذلك شكل الوطنيون خارج طهران حكومة مؤقتة باسم «إيران الحرّة» كان الشهيد حسن مدرس أحد أعضائها، وقد لقيت الخطوة تأييداً واسعاً من قبل رجال وطنيين من بينهم «إحسان الله خان» الذي سيكون له شأن في حركة الغابة فيما بعد.

وفي همدان كان الكولونيل «محمد تقي خان بسيان» قائد الجند في همدان يقاوم النفوذ الروسي، وحدثت اشتباكات بين الفريقين.

كانت خطة الحلفاء أن تندفع القوّات الروسية بقيادة «بارتوف» باتجاه بغداد عبر خانقين لتلتقي مع القوّات الإنكليزية هناك.

وقد وقفت العشائر الكردية وخاصّة «السنجابيون» بوجه التقدم الروسي الذي أصبح يواجه مصاعب عديدة، وكان الوطنيون الإيرانيون يسهمون في نصرة القوّات العثمانية والتي حققت انتصاراً ساحقاً في «كوت العمارة»؛ حيث استسلم أسرى هنود وإنكليز، وقد شجع هذا الانتصار العثمانيين في الاتجاه صوب كرمنشاه،

ولكن الروس الذين وصلتهم تعزيزات عسكرية دفعوا العثمانيين إلى الوراء.

وفي خطوة غير مفهومة أقدم العثمانيون على خلع سلاح الوطنيين الإيرانيين الذين اضطروا إلى دخول الأراضي العثمانية، وقد أثار هذا الموقف الفظ غضب الوطنيين، ودفعهم إلى مغادرة الأراضي العائدة للعثمانيين والعودة إلى الوطن، فيما فضل بعضهم الهجرة إلى ألمانيا ودول أوربية أخرى.

وفي تلك الأثناء، وردت الأنباء عن استسلام الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال «طوشاند» للقائد العثماني خليل باشا، وقد بلغ عدد الأسرى ١٤,٠٠٠ أسير.

الأمر الذي أوقف التقدم الروسي.

موقف الغابة من الصراع العالمي

ليس عسيراً أن نكتشف الأُصول التي استندت إليها حركة الغابة في تحديد موقفها من أطراف الصراع العالمي، فهناك الروس والإنكليز الذين ساموا إيران الهوان خلال عقود طويلة من الزمن.

وليس هناك ما هو أكثر جلاءً من محنة المشروطة، فبينما كان الروس يصبون حمم مدافعهم على الشعب الأعزل، كان الإنكليز يئفذون بخبث إلى روح الحركة الدستورية لسلخها عن الدين والشريعة؛ ومن هنا جاء موقف الحركة المنسجم تماماً مع موقف الرأي العام الشيعي.

فالرأي العام الشيعي في العراق، وكما هو معروف، كان مسانداً للعثمانيين بسبب العواطف الدينية بالرغم من السياسة الطائفية للإمبراطورية تجاه رعاياها الشيعة.

ولم يمنع ذلك التمييز الطائفي والقهر السياسي والاجتماعي القبائل الشيعية، في جنوب ووسط العراق والقبائل الكردية في الشمال، من الوقوف بوجه التقدم الإنكليزي والروسي.

وفي غمرة تلك الأحداث، سقطت بغداد دون مقاومة تذكر[1].

ومن الطبيعي أن تقف «هيئة اتحاد إسلام» وقوّتها الثورية المسلحة إلى جانب الدولة الإسلامية في إسطنبول ولو على المستوى العملي فقط.

فثورة الغابة كانت ومنـذ انطـلاقتها الأولـى تقاتـل الوجـود الروسي والنفوذ الإنكليزي وهما عدوا الدولة العثمانيـة.

كانت ثورة الغابة قد تركت أصداءها خارج إيران؛ مما دفع بأنور باشا القائد العام للجيوش العثمانية إلى التفكير بدعم الحركة بالسلاح، وأنور باشا هذا ينتسب إلى جمعية إسلامية متأثرة بأفكار السيد جمال الدين.

لهذا ومن أجل وقف التقدم الروسي في الأرض الإيرانية، أسرع إلى إرسال هدية الأخوّة الإسلامية يحملها «حسين أفندي» التبريزي الأصل، والذي تلقى دراسته في «جامعة إسطنبول»، واشترك في مقاومة الروس في كردستان، وقد نجح حسين أفندي في إيصال الهدية العثمانية إلى منطقة «بيجار»، وأرسل مبعوثه إلى ثوّار الغابة معتذراً عن عجزه في التقدّم أكثر.

فيما أخفق «سلطان علي» الذي كلّف بإيصال مدفع عثماني؛ حيث ألقي القبض عليه.

وقد انبرى مجاهدان إلى التوجه إلى «بيجار» واستلام هدية أنور باشا التي كانت عبارة عن: «٣٠٠» بندقية وكميّات من الذخيرة وساعة ذهبية ونسخة نفيسة من المصحف الشريف وسيف مرصّع مكتوب عليه كلمات الإهداء باللغة التركية.

وقد لازم حسين أفندي ميرزا كوجك في جهاده ضد الروس، ولقي مصرعه في أحد الاشتباكات.

ومن أجل تعزيز القدرات الحربية، وصل ضباط عثمانيون شاركوا الثوّار

١. سقطت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧، وأعقبها سقوط القدس في كانون الأول من نفس العام.

حربهم ضد الروس والإنكليز فيما بعد.

وفي تلك الفترة، كانت حركة الغابة قد بسطت نفوذها على كل گيلان تقريباً، وراحت تنشئ المدارس، وتقيم السدود، وتبني الوطن.

وعندما تأسست أول مدرسة لتعليم فنون الحرب، تدفق الشباب من كل حدب وصوب ليكونوا جنوداً في قوّات الثورة.

وفي لاهيجان، تأسس نظام وطني، وفي كسما بدأت لجنة الحرب أعمالها كوزارة للحرب والدفاع.

وأصبحت گيلان مأوى اللاجئين من المغضوب عليهم من قبل الروس والحكومة، وفي تلك الفترة لجأ إلى الثوّار ضباط ألمان كبار كانوا قد فرّوا من معسكرات الأسر الروسية.

أصبحت في گيلان حكومة مستقلة تديرها لجان هي بمثابة وزارات، وكانت «هيئت اتحاد إسلام» توجّه نداءاتها لكل وطني كفوء من أجل أن يخدم أمّته في أرض گيلان الحرّة.

لقد نجحت هيئت اتحاد إسلام التي تتألف من ٢٧ عضواً أغلبهم من علماء الدين في إرساء نظام وطني، وكانت تجربة ثورية ناجحة حققت أهدافها في أقل من ثلاثة أعوام.

وإن المرء ليقف بإجلال أمام شخصية ميرزا كوجك الذي نجح من خلال لجوئه إلى الغابة في تشكيل أولى خلايا الثورة، واثقاً بأن ثورة ما لن تنجح مالم تتجسد أخلاقها ومبادئها وطريقها في آن واحد.

ومن المؤكد أن ميرزا لم يكن لينجح في ثورته لو لم يكن مؤمناً بالله ذلك الإيمان الوجداني العميق، ولو لم يكن يؤمن بالاستشهاد طريقاً للأحرار أو الحياة الكريمة.

الفصل الثاني: ١٩١٧ ـ ١٩١٩

«إن الخطر الذي يهدد الثورة، أية ثورة كانت، هو من الداخل.. هناك في قلوب الثوار؛ حيث تحتدم الأفكار والعواطف وتتصارع القيم والغرائز..».

ثورة أكتوبر الكبرى

كانت سنة ١٩١٧ عاصفة بالحوادث، فقد وصلت الحرب العالمية أخطر منعطفاتها، وكانت المدن التاريخية تتساقط الواحدة بعد الأخرى.

ثم وقع حادث كان له الأثر الكبير في مسار الحرب عندما انفجرت ثورة في روسيا القيصرية خُلع إثرها القيصر لينهض نظام آخر.

وفي نفس العام، تورطت أمريكا في أوحال الحرب المدمّرة، فيما كانت الدولة العثمانية تتجّه نحو مصيرها البائس.

وفي تلك الفترة، ظهر شبح الجوع مرعباً قاسياً لا يرحم، وفيما كانت الثورة في روسيا تتخبط، وكانت الهزيمة النفسية تجثم فوق قلوب جنود روسيا خاصّة في الجبهة الألمانية، وصل لينين في ١٦ نيسان ١٩١٧ بطرسبرغ التي أصبحت فيما بعد «لينيغراد» في عملية القطار المغلق التي ما تزال حتى الآن تثير أسئلة عديدة.

عندما نجحت الثورة في روسيا، تسلمت الحكم قيادة ليبرالية بزعامة كرينسكي.

أعلنت أنها ستزيد من أوار الحرب ضد الألمان.

ويومها كان لينين يعيش حياة المنفى في ألمانيا، ففكرت القيادة الألمانية في أن لينين قد يتمكن من إشغال روسيا في حرب داخلية، فيخفف من ضغوط الجبهة الروسية في الشرق.

وهكذا؛ وضع تحت تصرف لينين قطار سريع مغلق عبر به الأراضي الألمانية وبولندا حتى الحدود مع روسيا، ومن ثم إلى بطرسبرغ، وخلال تلك الفترة؛ أي بين انتصار الثورة وتسلم لينين الزعامة، كان طريق الثورة ما يزال غامضاً ولما تتضح معالمه بعد[1].

وفي ٧ تشرين الثاني احتل الجيش الأحمر قصر الشتاء، وألقي القبض على أعضاء حكومة كرينسكي، وبذلك بدأ صعود لينين الذي قرأ منشور السلام المتضمن وقفاً فورياً لإطلاق النار في كل الجبهات.

وقد استقبلت ألمانيا الإعلان بحماس، فيما عدّته بريطانيا طعنة نجلاء بالرغم من رغبة الأخيرة في إبعاد روسيا عن إيران والهند.

وفيما كان الإنكليز يواجهون الفشل في مناطق عديدة، سقطت مدينة القدس[2] في أيديهم ليزيد ذلك من وتيرة التراجع العثماني باتجاه الفناء.

وفي تلك الفترة، كان شبح القحط يجثم فوق طهران.

كان الجوع يجتاح العاصمة الإيرانية ويفتك بسكانها، وفي هذه الفترة

---

١. الحرب العالمية الأولى - ٣٨٢ ـ ٣٨٩.

٢. كان وعد بلفور قد صدر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧؛ أي قبل سقوط المدينة المقدسة بشهر تقريباً.

العصيبة التي تتزلزل فيها القيم الإنسانية، أقدم ميرزا وفي خطوة إنسانية وموقف نبيل على إرسال كميات كبيرة من الأرزّ الشمالي لأهالي طهران، واشتهر الأرزّ المرسل من حركة الغابة باسم «أرزّ كوجك خاني».

وفي ذلك المقطع التاريخي الذي يمتد إلى حوالي عامين، عززت «هيئت اتحاد إسلام» وجودها لتصبح حكومة لإنقاذ الوطن.

وفيما كان الروس يستعدون للانسحاب، كان الإنكليز يتحفزون لملء الفراغ الروسي مستخدمين قوّتهم العسكرية وماكنتهم الحربية المتفوقة؛ إضافة إلى وسائل هابطة في مقاييس الإنسانية عندما تقدم السفارة البريطانية مثلاً على شراء كل ما يعرض في الأسواق من القمح وخلق مجاعة كاذبة[1].

الطريق إلى آبار البترول

كانت القيادة الإنكليزية تتطلع إلى احتلال القفقاز، فلقد أربكت الثورة الروسية إمداداتها، وأحدثت فجوة هائلة في مسار الحرب؛ ولذا صدرت الأوامر بالتحرك فوراً إلى القفقاز قبل وصول القوّات العثمانية، وبالتالي تدفُّق الألمان باتجاه مركز آسيا.

ولهذا؛ أرسلت القيادة الإنكليزية التي نقلت مقرّها من همدان إلى قزوين الكولونيل «استوكس» للتفاوض مع الثوّار، وقد أخفق العقيد في مهمته؛ لأن الثوّار لن يسمحوا للأطماع البريطانية أن تمتد إلى أذربيجان؛ حيث تنهض

١. تُصوّر الوثيقة رقم ٧٦ - المؤرخة في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٦ الوضع المأساوي في العاصمة طهران، فلقد اختفى الخبز تماماً، وسادت المجاعة بشكل رهيب، مؤكدة أن السفارة البريطانية تعمل ومن وراء ستار في مضاعفة هذه الحالة بشراء كل ما يعرض من قمح وخزنه؛ لدفع الناس للجوء إلى السفارة البريطانية.
وبالرغم من كل ذلك؛ فإن الآمال تتجه صوب الشمال.. إلى حركة الغابة، ويؤكد التقرير السّري أن هذا الوقت هو أفضل فرصة لاحتلال طهران وإقامة حكم وطني. نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية - ٥٨».

حكومة مستقلة في العاصمة باكو.

كانت آخر الأفواج الروسية بقيادة «بتشراخوف» تتأهب لمغادرة الأرض الإيرانية؛ وهنا عرف الإنكليز كيف ينتهزون هذه الفرصة؛ أن القائد الروسي له ميول ضد الثورة. وهكذا بدأت اتصالات مشبوهة بين الإنكليز والقائد الروسي.

أرسل ميرزا مفاوضاً ألمانيا هو الرائد «فون پاشن» ليعرض على الروس تسهيلات من أجل الانسحاب بسلام، وكان موقف حركة الغابة هو الحؤول دون التقدم الإنكليزي باتجاه باكو.

وأسفرت المفاوضات بين الطرفين عن اتفاق شفهي يقضي بالانسحاب شرط عدم تعرض المجاهدين للقوّات الروسية، واستمهل «فون پاشن» القيادة الروسية مدة ٢٤ ساعة لإحاطة القائد ميرزا كوجك خان بذلك وترتيب ضمانات عسكرية.

هل تظاهر القائد الروسي بالموافقة؟؟ هل سقط صريعاً أمام إغراء الإنكليز؟

كانت طائرتا استطلاع إنكليزيتان قد أقلعتا من قزوين وراحتا تستكشفان مواقع الثوّار في منطقة منجيل في أقصى الجنوب الغربي من «إقليم گيلان» وفي منتصف الطريق بين قزوين وميناء «أنزلي» على بحر الخزر.

ولم تمض ساعات فقط على المهمة المحددة بـ ٢٤ ساعة حتى بدأت المدافع الروسية تصبّ حممها بدقة فوق مواقع الثوّار والمجاهدين وذلك في الرابع من رمضان ١٣٣٦.

وأعقب ذلك هجوم شامل شنه الفرسان والمشاة، ودارت معارك ضارية بالسلاح الأبيض، واجتاز الروس خطوط المجاهدين الأمامية، وكانت حرباً غير متكافئة، فالثوّار لم يخوضوا قبل ذلك حرباً نظامية وكانت خططهم السابقة تنطلق من خطط حرب العصابات.

وبالرغم من ذلك فقد استبسل المجاهدون، وكانت المعركة التي دارت فوق جسر منجيل ملحمة بطولية؛ إذ صمد ثمانية عشر مجاهداً بوجه الآلة الحربية الروسية حتى النفس الأخير فيما أسر قائد المجموعة بعد إصابته بجراح بليغة[1].

وهكذا؛ راحت مواقع الثوّار تتساقط الواحدة بعد الأخرى؛ لأن البنادق القديمة لا تصمد أمام المدافع الثقيلة، وبالرغم من صدور أوامر بالانسحاب حتى نهر «رودبار» إلاّ أن الفوضى كانت قد سادت تماماً، ليحدث صدع كبير في خطوط الدفاع.

وهكذا أصبح الطريق مفتوحاً أمام الروس ومن ورائهم الإنكليز للتدفق صوب ميناء أنزلي.

وسقطت رشت في الطريق، وارتكب الإنكليز فيها ما يندى له الجبين، فيما وقف حاكم گيلان عاجزاً عن فعل شيء.

أسفرت المعركة عن سقوط مائة مجاهد في منجيل وأسر خمسين آخرين، وعشرات الجرحى والمفقودين.

نجح الإنكليز وبمساعدة بتشراخوف في الوصول إلى باكو[2]، ومن ثم تشكيل إدارة ذاتية تحت إشراف الإنكليز، غير أن الضغط العثماني في القفقاز كان يزداد عنفاً وسرعان ما سقطت «بادكوبه»، وتم طرد الإنكليز حتى ميناء «أنزلي» لتنهض حكومة مستقلة في القفقاز راحت على الفور تؤسس لعلاقات دبلوماسية، ولكن حقول النفط جعل من تلك المنطقة من العالم محلاً للأطماع الدولية.

فالبلاشفة راحوا يتطلعون إلى احتلال آبار البترول، فيما وقف الإنكليز ينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها.

---

١. رفض «محمود خان جوليده» قائد المجموعة الباسلة تلقّي العلاج بعد نقله إلى قزوين قائلاً: «إنني أفضّل الموت على أن تلتئم جراحي بعلاج أعداء الوطن!». سردار جنگل - ١٣٤.

٢. كانت تعرف بـ «بادكوبه».. إنها حركة التاريخ عندما تغيّر المدن أسماءها!

إن التاريخ لن يغفر لمصطفى كمال الذي عرف فيما بعد بـ «أتاتورك» ما قام به وما تزال مواقفه في غمرة الحرب العالمية تثير الشكوك، فمن أجل حفنة من الذهب وسفن حربية في البحر الأسود باع القفقاز إلى البلاشفة، فانسحبت الجيوش العثمانية من كل القفقاز.

وفي تلك الفترة، استأنف الثوّار نشاطهم وراحوا يشنون الغارات الخاطفة على طول الطريق بين منجيل وأنزلي ولم يبق للإنكليز موقع ثابت إلاّ في رشت وبعض أطرافها.

ومن أجل إثارة الرأي العام ضد حركة الغابة، بدأ الإنكليز لعبتهم الخبيثة في شراء وخزن ما يعرض من الأرزّ.

وكان تجّار الحرب ينفّذون الخطط الدنيئة للإنكليز، فانتشرت المجاعة في گيلان.. گيلان الخضراء!!

كل ذلك من أجل تركيع السكان، وإلقاء اللوم على حركة الغابة والمجاهدين.

كانت الطائرات الإنكليزية ما انفكت تقصف مواقع في الغابة هنا وهناك، ولم يغفل الإنكليز لحظة واحدة عن استخدام جواسيس للكشف عن مواقع الثوار خاصة مقرّ القيادة حيث يعيش قائد الحركة العنيد ميرزا كوجك خان.

ولقد وقع حادث غريب عندما حلقت طائرات إنكليزية في سماء «كلاشم» حيث يعقد ميرزا اجتماعاً مع قادته، وراحت تمطر بقذائفها بناية محدّدة، وكاد ميرزا يلقى مصرعه في القصف، ومن الطبيعي أن تحوم الشكوك حول البعض بسبب دقة القصف وظهور الطائرات المباغت وعدم قصفها أي مكان آخر في ذلك اليوم.

وكان المتهم يعمل مترجماً لدى الإنكليز، وقد ألقي القبض عليه في ميناء أنزلي فيما بعد.

وفي شوّال؛ أي بعد شهر واحد من معركة منجيل، شنّ الثوار غارة جريئة على

معسكر إنكليزي على الطريق الواقعة بين رشت وبسيخان في الغرب، وكان الهجوم على محورين قاد أحدهما ميرزا كوجك خان بنفسه.

وفي منتصف الليل، بدأ أزيز الرصاص ينهال على الإنكليز من كل صوب، ولكن الإنكليز استخدموا المدافع والطائرات، ولذا قرر المهاجمون الانسحاب، وقرر الإنكليز بعد انسحاب الثوار إضرام النار في رشت كلها، ولعل في مخيلة القائد الإنكليزي منظر مدينة روما وقد التهمتها نار «نيرون»، ولكن الإنكليز اكتفوا بإضرام النار في منزلين فقط يعود أحدهما إلى ممثل الثوّار في رشت والآخر إلى أحد رموز الثورة وهو حاجي أحمد كسمائي.

وإثر ذلك بدأ الإنكليز حملة واسعة للبحث عن الثوار.

وخلال عملية البحث، قام الإنكليز بتحويل بعض المنازل إلى خرائب وأنقاض، كما قتل بعض المجاهدين.

وفي هذه الفترة كانت الوزارة في طهران متفاهمة مع الإنكليز في ضرورة القضاء على حركة الغابة نهائياً؛ ولذا اختارت الحكومة في طهران ومن ورائها الإنكليز لاهيجان هدفاً للهجوم القادم. كان الدكتور حشمت يشرف على نظام وطني يدير المدينة وضواحيها، وقت الاصطدام المسلح.

الهدنة

بالرغم من أن الإنكليز قد أحكموا قبضتهم على رشت تماماً؛ ولكن الغارات كانت مستمرة، وأصبحت الطريق المؤدية من قزوين إلى ميناء أنزلي أكثر عرضة لهجمات المجاهدين؛ ولذا فكروا بتوقيع اتفاقية سلام أشبه بالهدنة.

أمّا الثوّار فقد استجابوا لدعوة السلام انطلاقاً من أسباب أخرى في طليعتها القحط الذي تفاقم بصورة فظيعة، وقد أصبح الجوع شبحاً مخيفاً يهدد كل شيء ويزلزل كل الثوابت خاصّة في الأوساط الفقيرة التي سحقها الجوع سحقاً.

كما أن الثوّار يحتاجون هدنة لإعادة بناء قواهم المنهكة، وفي آب ١٩١٨ بدأ القنصل الفرنسي وساطته.

وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات من رشت التقى ممثلون عن الثوار نظراءهم من الإنكليز.

وتضمن الاتفاق الذي جاء في ثمان نقاط مكتسبات للطرفين، أملتها ظروف الصراع:

١. تلتزم لجنة «اتحاد إسلام» بعدم التعرّض عسكرياً لطريق «قزوين ـ أنزلي» والذي يدعى بـ «طريق العراق»، وتوضيح ذلك أنه لا يحق لقوّة عسكرية باستثناء الإنكليز أو القوّات الحكومية استخدام الطريق المذكور.

٢. تلتزم لجنة «اتحاد إسلام» بعدم توظيف الأجانب ممن ينتسبون إلى دول معادية لبريطانيا.

٣. يتعهد ممثلون عن «لجنه اتحاد إسلام» بتوفير المواد الغذائية للقوّات الإنكليزية في گيلان في مقابل التزام الإنكليز بعدم إرسال مسلحين أو غير مسلحين إنكليز إلى الإقليم.

٤. يلتزم الطرفان بإطلاق شامل لسراح الأسرى من الفريقين.

٥. يلتزم الإنكليز بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لإيران إلاّ عندما يقوم الإيرانيون بتقديم مساعدات ما لأعدائهم وتلحق الضرر بهم.

٦. يلتزم الإنكليز بعدم التعرّض لأهداف ومقاصد «لجنة اتحاد إسلام» ما دام يصبّ ذلك في مصالح بريطانيا.

٧. لأهالي گيلان حق تقرير المصير في انتخاب من يحكمهم حتى

ترسـل الحكومـة حاكـماً مـن قبلهـا.

٨. يلتزم الطرفان بعدم تجول أفرادهما المسلحين داخل المدينة.

وأبرز ما في النقاط الآنفة الذكر هو اعتراف بريطانيا ضمناً بتدخلها في الشؤون الداخلية لإيران والتزامها بعدم التدخل المرتبط بموقف إيران أو إقدامها على مساعدة أعداء بريطانيا.

كما تبدو النقطة الثالثة مساساً بكرامة حركة الغابة في تعهدها بتوفير الموادّ الغذائية للقوّات الإنكليزية الموجودة في الأراضي الگيلانية، ولكن المتأمِّل في تلك الظروف ووجود طبقة من تجار الحروب وعملاء الأجنبي، وإسهامهم في اصطناع مجاعة مروّعة في گيلان، يدرك أن هذه النقطة كانت في صالح سكان الإقليم، فقد تولّى مجاهدون من الحركة تنظيم السوق والموازنة بين توفير الإمدادات الغذائية للإنكليز وبين حاجة السكان في الإقليم.

ويبدو أن الإنكليز بدأوا يفكرون بضربة غير مباشرة.. ضربة قادمة من طهران خاصّة بعد تصاعد موجة العداء ضد بريطانيا بعد الإعلان عن حقيقة المعاهدة الروسية الإنكليزية بشأن إيران[١].

ولذا؛ راحوا يكثّفون في دعم وإسناد حكم عميل في طهران يقدّم لهم أكثر مما يقدّم لهم المندوب السامي البريطاني[٢]، ومن هنا جاءت حكومة «وثوق الدولة» التي راحت تمضي قدماً في بيع إيران إلى بريطانيا بثمن بخس.

١. فضح الروس بعد الثورة بعض المعاهدات السرّية كمعاهدة «سايكس ـ بيكو» فيما يخص توزيع أراضي الإمبراطورية العثمانية.
وفي برلين أعلن مسؤول روسي حقيقة المعاهدة الروسية الإنكليزية سنة ١٩٠٧ بشأن تقسيم إيران إلى ثلاث مناطق للنفوذ بما في ذلك المنطقة المحايدة.
وقد أعلن تروتسكي إلغاء تلك المعاهدة التي تصادر استقلال إيران.

٢. صرّح السير برسي سايكس: «لولا الإسناد البريطاني للحكومة المركزية في طهران، لكان الحكم الملكي في خبر كان».

وثوق الدولة

في أواخر سنة ١٩١٨، خرجت بريطانيا ظافرة من حرب مدمّرة شهدت آسيا خلالها الويلات، وأصبحت مناطق واسعة من الشرق تحت النفوذ الإنكليزي.

وفي طهران، فرض الإنكليز «وثوق الدولة» «ميرزا حسن خان وثوق» رئيساً للوزراء، وكانت أولى مهامّه هي القضاء على حركة الغابة في گيلان.

وكانت الحكومة بالرغم من عمالتها الواضحة ماكرة في التعامل مع حركة الغابة، ففي الوقت الذي كلفت فيه شخصية دينية (حاجي آقا شيرازي) للتفاوض مع ميرزا حول نزع السلاح وإنهاء حالة الحرب؛ راحت تلعب على مشاعر أحد رموز الثورة وهو «حاجي أحمد كسمائي» وتنفخ في أعماقه روح الزعامة والمنافسة لقائد في حركة الجهاد.

ومن المفارقات في تلك الحقبة أن رموز حكومة وثوق الدولة كانت تستعجل الإنكليز في توجيه ضربة ماحقة للثوار.

ولكن الإنكليز عرفوا كيف ينفذون خططهم على أيدي إيرانيين.

وفي أول خطوة لضرب أكثر من عصفورين بحجر واحد، أبرق القنصل الإنكليزي مخاطباً شخص ميرزا كوجك خان مقروناً مع «حاجي أحمد كسمائي»، وكان الإنكليز في الآونة الأخيرة قد عمقوا هوّة الخلاف بين ميرزا وحاجي بشكل ينذر بوقوع انفجار في داخل الحركة.

إن الخطر الذي يهدد الثورة، أيّ ثورة كانت، هو من الداخل، هناك في قلوب الثوّار.. حيث تحتدم الأفكار والعواطف، وتتصارع القيم والغرائز.

هنالك تتهدد الخطوط الأولى للثورة، وعندها يكون الخطر الخارجي قد أصبح له وجود حقيقي.

لقد جاء استسلام حاجي أحمد كسمائي أحد رموز الثورة بلا أي مبرر حقيقي

مقنع؛ غير أن قراءة في تلافيف المخ، سوف تظهر طريقة الكائن البشري في التفكير.. عندما يتناسى المرء في ظروف ما أهدافه المعلنة، ليستجيب إلى أصوات تضجّ في اللاشعور حيث تكمن أهدافه الحقيقية!!

كانت تلك البرقية قد أثارت موجة من الشكوك لدى الثوّار، فوراء الأكَمة ما وراءها[1].

وبعد تدارس الموقف، أبرق المجاهدون إلى القنصل يحيطونه علماً باعتذار ميرزا كوجك خان عن حضور الموعد المقرر زماناً ومكاناً، واقترحت البرقية موعداً مغايراً في المكان والزمان.

وقد ردّ القنصل في برقية أخرى بتاريخ ١٩١٩-٣-٢٨ على برقية الغابة، وجاء الردّ جافاً رافضاً للموعد المقترح ومرفقاً بإعلان يعلن صراحة بإلغاء الاتفاق السابق بين الإنكليز وحركة اتحاد إسلام، انطلاقاً من اعتبار بريطانيا نفسها «شريكاً» في إدارة ايران!

كما تضمن الإعلان «نصيحة مخلصة» بإلقاء السلاح والاستسلام للحكومة المركزية مقابل ضمانات أمنية لشخص ميرزا، وعرضاً بمغادرة إيران، واستعداداً لمنحه اللجوء السياسي في العراق أو «بين النهرين»، كما ورد في الإعلان.

لقد كان الإعلان يقطر نفاقاً ومكراً وتهديداً ووعيداً وخياراً بين طريقين؛ طريق الوعود الإنكليزية (وثق أنك ستحظى بكل رعاية من جانب الإمبراطورية البهية)، وطريق الوعيد. ولم يتردد ميرزا كوجك خان في الاختيار.. الاختيار بين حياة ذليلة، وموت كريم.

وقد حدد الإعلان خمسة أيام مهلة لإعلان حركة الغابة موقفها النهائي.

---

١. أشارت البرقية المؤرخة في ٢٧ آذار ١٩١٩ موجة من الشك بسبب أسلوب ترتيب اللقاء واشتراك ممثلين عن الحكومة المركزية حسب الادعاء الإنكليزي. سردار جنگل - ١٦٤.

ولم يكن الإعلان في حقيقته سوى ذريعة للهجوم على الغابة.

وقبل انتهاء المهلة المقررة حلّقت الطائرات الإنكليزية لتقذف آلاف المنشورات الموجهة إلى أهالي گيلان.

وقد جاء في المنشور إنذار نهائي لمدّة ٤٨ ساعة فقط لكي يلقي الثوّار السلاح منذراً الأهالي بأن هذه المنشورات ستتحول فيما بعد إلى قذائف وقنابل ورصاص!

ولقد أثار الإنكليز هذه الضجة وفجّروا الموقف من أجل التحضير للمعاهدة المذلّة التي سيمضيها رئيس الوزراء العميل «وثوق الدولة»، والتي عدّها ميرزا كوجك خان فيما بعد صكاً في بيع البلاد للأجنبي بثمن بخس.

ولقد كان ميرزا عقبة كأداء في طريق ترسيخ النفوذ الإنكليزي في البلاد.

كان الإنذار الإنكليزي قد حدد غروب شمس يوم الثلاثين من جمادي الآخرة ١٣٣٧ الموافق ٤ أبريل ١٩١٩ آخر فرصة للاستسلام وإلقاء السلاح.

كان الإنكليز على علم تام بحالة الحركة داخلياً، فقد اتسعت هوّة الخلاف بين حاجي أحمد كسمائي وميرزا كوجك خان، وأصبح تمرّد كسمائي «وارداً» في أيّ لحظة بعد تبادل رسائل بينه وبين شقيقه بهذا الشأن.

فقد صدر عفو مشروط بحقه من لدن رئيس الوزراء وثوق الدولة بعد مساعٍ قام بها شقيق كسمائي.

الانفجار الداخلي

جاء استسلام حاجي أحمد كسمائي كصاعقة مدمّرة فجرّت الوضع داخلياً؛ ذلك أنه أعلن استسلامه مع قواته واضعاً نفسه تحت تصرف الحكومة المركزية.

كان حاجي أحمد من رموز الثورة ومن الرعيل الأول وعلى علم تام بطبيعة

الخطط وعالماً بمواقع الثوّار وزوايا الغابة شبراً شبراً[1].

لقد واكب الثورة منذ انطلاقتها الأولى.. وعاش حوادثها وفي النفس شيء.. هناك في الأعماق السحيقة من دنيا البشر كائن مكبّل بالأغلال ولكنّه متحفزّ للعربدة في أول فرصة..

كان الوضع بالغ الخطورة، ووجد المجاهدون أنفسهم محاصرين؛ فقد سقط الطريق بين «ماسولة» ورشت في قبضة قوات القوزاق وهي تواصل تقدّمها، فيما كان الطيران الإنكليزي قد بدأ هجماته.

ولذا؛ كان من الحتم إخلاء غابات «فومن» والانسحاب باتجاه لاهيجان والالتحاق بقوّات الدكتور حشمت؛ ومن ثم اتخاذ موقف مناسب.

ولقد كان الانسحاب سريعاً مفاجئاً ومرتبكاً إلى حدّ ما، سيما وأن نهر «سفيد رود» قد شكل عائقاً مائياً صعب العبور، ومما زاد الطين بِلّة أن مناطق العبور كانت في أرض مكشوفة جعلت من القوّات المنسحبة صيداً سهلاً للطائرات المغيرة.

وصلت قوّات المجاهدين منهكة فيما كان عشرون ألف جندي حكومي قد بدأوا حملة مطاردة.

لم يكن ميرزا يودّ الاصطدام بالقوّات الحكومية، وكان هذا أحد مبادئه؛ لقد كانت الثورة من أجل الوطن وضد الأجنبي المحتل، وهو لا يريد أن تتحول ثورته إلى حرب أهلية واقتتال بين الإخوة.

ولهذا قرر ميرزا ومعه الدكتور حشمت إخلاء لاهيجان والاعتصام بالمرتفعات هنا وهناك في غرب گيلان.

وأثناء الاشتباكات وقع عديد من الجرحى والقتلى في أربع معارك مهمّة

---

١. جاء استسلام حاجي أحمد كسمائي استجابة عمياء لنوازع منحطة في الذات البشرية، عندما تثّاقل إلى الأرض لتكشف عن طبيعة لها قابلية مدهشة على النفاق المعقد.

وصدامات صغيرة.

وفي خضم هذه المنعطفات، يفقد البعض حماسه في مواصلة الطريق.. لقد أصبح المستقبل المنظور مبهماً، والمصير مجهولاً، والحياة عبئاً ثقيلاً.

وعندما يفقد البعض أملهم بغدٍ أفضل، فإنهم يستسلمون للقدر؛ حتى لو كان في ذلك الاستسلام موت.

لقد كان لعنف المعارك ومناظر الجثث الهامدة والدماء والشظايا وأنين الجرحى وقعه المؤلم على واحد من أبرز رموز المجاهدين وهو الدكتور حشمت، الرجل الذي التقاه ميرزا على قدَر ليؤسسا معاً حركة الغابة ويطلقا شرارتها الأولى.

ها هو الآن بعد خمسة أعوام من الصراع المرير يقرر هو الآخر الاستسلام وتسليم نفسه وقوّاته إلى الحكومة.

لقد وصلته ضمانات قوّية بالعفو؛ بل ووعود بمستقبل مشرق.

وهكذا؛ وجد نفسه يستجيب إلى وعد بالعفو محرراً فوق المصحف المجيد.

ويجد هذا الوعد الزائف أثره بسبب طبيعة الدكتور حشمت المتديّنة، ولم يدر في خلده أن هذا المصحف كان أحد المصاحف التي رفعت ذات يوم في سهل صفين في معركة فاصلة في تاريخ الجهاد.

وهكذا يسلّم الدكتور نفسه ومعه ٢٧٠ من المجاهدين من قوّاته، فسيقوا أسرى.

وقد أدرك الدكتور حشمت أنه ارتكب خطأً فادحاً، عندما صفعه جلواز حقير على وجهه.

هنالك أدرك كلمات ميرزا رفيقه في الجهاد؛ تلك الكلمات التي حذرته من الانخداع بوعود حكومة فاسدة، من أجل هذا قرّر المجاهد المخدوع أن يواجه قدره بشجاعة.

ولذا؛ أعرض عن فرصة ذهبية في الفرار منتظراً مخاض الأيام.

وقد ردّ على الاتهامات الموجهة إليه بسكوت قاتل، ثم ارتقى منصة الإعدام أمام حشود الأهالي الذين تم حشرهم بالقوّة ليروا أمام أعينهم الرجل الذي بنى مدينتهم وأنقذ مزارعهم وحقولهم (وليعتبروا) من مصير من يقف بوجه الحكومة المركزية.

خلع المجاهد قبعته[1] وسلّمها إلى أحد الأهالي، وسلّم نظارته الطبية إلى شخص آخر، ونظر إلى الجموع المحتشدة نظرة تزخر بآلاف المعاني، ثم نظر إلى السماء المثقلة بالغيوم، ووضع بنفسه حبل المشنقة حول رقبته وأخرج لحيته الطويلة خارج حبل الموت.

وكان لمنظره وحركاته الهادئة وهو يواجه المصير الرهيب أبلغ الأثر في نفوس الذين احتشدوا لرؤيته، وفي اللحظة التي أطبق فيها الحبل، انفجرت صرخات مقهورة واجهها القوزاق بإطلاق الرصاص في الهواء.. وفرّ الأهالي، ليبقى جثمان المجاهد المظلوم معلقاً في الهواء.. بينما نسمات ندية تداعب لحيته التي ظهر فيها المشيب.

ولم ينج من الذين استسلموا مع الدكتور حشمت إلاّ نفر قليل، أما العشرات فقد ابتلعتهم الزنازين في «كاشان» و«سمنان» و«دامغان».

معاهدة لبيع إيران!

كان وثوق الدولة يمضي قدماً وربما أسرع مما يريده الإنكليز في بيع إيران إلى بريطانيا وربطها بمعاهدة مذلّة تجعل من إيران أكثر من دولة محتلة مغلوبة على أمرها، ولقد سبق هذه الخطوة خطوات هامّة في طليعتها تصفية حركة الغابة، وشلّ الحياة الدستورية أو تسطيحها، ولم يبق هناك من يقف في طريقه

١. يرتدي السكان في إقليم گيلان قبعة تشبه الطربوش إلى حدّ ما.

سوى رجلين؛ أحدهما يتحصّن في مجلس الشورى، وهو الشهيد حسن مدرس، والآخر في الغابة، وهو ميرزا كوجك خان.

وفيما كان وثوق الدولة يتقدم في الشمال كان يعاني المصاعب في العاصمة نفسها.

في آب عام ١٩١٩، أقدم وثوق الدولة على عقد معاهدة مع بريطانيا تتألف من ست نقاط كانت بمثابة صك بيع إيران وتحويلها إلى بلاد مستعمرة؛ حيث يقوم وثوق الدولة مقام «المندوب السامي البريطاني»[١].

وفيما كانت الجماهير هائجة في طهران ضد وثوق الدولة، كان الأخير قد نصب شخصية دموية لحكم گيلان.

وراح «تيمور تاش» الذي عرف فيما بعد بـ «سردار معظم» يطارد الثوّار ويضيّق الخناق، فكان يصدر أحكام الإعدام وهو في حالة سكر؛ بل كان يقتل المشتبه بهم دون محاكمة أو تحقيق، وقد بلغت دمويته أن أُمر بإعدام خمسة أفراد كانوا يجلبون الفحم من الغابة متهماً إياهم بالتعاون مع الثوّار، وفي لحظة سكر، رسم دوائر حمراء على خمسة من أولئك المساكين؛ حيث نفذت أحكام الإعدام بحقهم في الصباح[٢].

وفي تلك الحقبة العاصفة، كان ميرزا كوجك خان يحاول توثيق عرى الاتصال مع الشهيد مدرس لعمل شيء من أجل البلاد.

غير أن الحوادث كانت تجري بأسرع مما يتصوّر! فقد أشرفت حكومة وثوق

---

١. انبرى الشهيد حسن المدرس إلى معارضة الاتفاقية بشدّة، وهاجت لذلك عواطف الرأي الإيراني، فخرجت مظاهرات كبيرة سقطت إثرها حكومة وثوق الدولة، والعجيب أن النسخة الأصلية من المعاهدة قد فقدت ولم يعثر لها على أثر حتى الآن. تاريخ إيران السياسي المعاصر - جلال مدني.

٢. سردار جنگل - ١٨٣، نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية - ٢٥».

الدولة على السقوط بسبب الضغط الشعبي، وعندها نسج الإنكليز واحدة من أخطر لعبهم السياسية في الشرق.

إذا كان الشعب الإيراني يهتف ضد الوجود الأجنبي وبالتحديد الإنكليز، فإن «بريطانيا العظمى» تعرف كيف ستتصرف بالطريقة التي توحي لكثيرين أن غياب بريطانيا يعني أن الفوضى ستسود البلاد.

مصالحة مع الحكومة

تصاعدت حدّة الاشتباكات بين مجاميع الثوّار والقوّات الحكومية، وكانت عملية المطاردة تتم بسرعة فائقة لم تترك للمجاهدين فرصة لالتقاط أنفاسهم.

وتسجّل مجموعة من الوثائق عنف الاشتباكات[١]، وتشتت مجاميع المجاهدين، وشائعات تتحدث عن تسليم ميرزا كوجك خان نفسه للسلطات[٢].

كما أن شهادات بعض من شهدوا تلك الحقبة المريرة تعكس عمق المحنة التي عاشها المجاهدون؛ وهم يعانون الجوع والسهر والإجهاد وضغوطاً نفسية أثارها اليأس حتى لم يبق مع ميرزا سوى ثمانية من رفاقه[٣].

لقد نجحت الحكومة في كسر شوكة المجاهدين عبر أساليب البطش والتنكيل بالأهالي وإحراق المنازل، ولكنها عمقت الحبّ والولاء الخالد لميرزا وثورته؛ ففي ظلّه نعمت گيلان بفترات مزدهرة، لقد كان ابناً باراً لوطنه وشعبه.

وقد حاول قائد قوّات القوزاق[٤] في نهاية عام ١٣٣٧ وبالتحديد في ٢١ ذي

---

١. وثيقة رقم ١٢٢، نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية - ١٢٢».

٢. الوثيقة رقم ١٣٢ المؤرخة في ٢٧، ٢٨ ربيع الأول، نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية» - ١٤٠.

٣. سردار جنگل - ٢٠٠ ـ ٢١٥.

٤. روسي يدعى «كيكاتشنكوف».

الحجة منه الوقيعة بميرزا عبر دعوته إلى السلام وإيقاف نزف الدم.

وقد جاءت رسالة القائد الروسي مليئة بالوعد والوعيد، ولكنها تضمنت اعترافاً صريحاً بوطنية وإيمان ميرزا، ويلمس المرء من خلال لهجة الخطاب احتراماً عميقاً لشخص ميرزا.. احتراماً أملته ملحمة مريرة في المقاومة والجهاد الطويل.

وبعد يوم واحد سطر ميرزا كوجك بنفسه رسالة جوابية جاء فيها: «وصلت متأخراً يا ثمل[1]، قرأت رسالتك، وإنني لن أخدع بوعود حكومة مكروهة من الشعب»، «إن وعود الإنكليز للآخرين مقابل ابتلاع إيران كلها هي التي تدفعني إلى ألّا أستسلم.. إن ضميري يملي عليّ إنقاذ وطني من براثن الأجنبي».

ذكرت لي: أن النظام لا يعرف حقاً وباطلاً، وأنه يجب سحق المعارضين للحكومة أيّاً كانوا. أمّا أنا فأقول: إن تاريخ العالم يسمح لكل أمة بالثورة إذا ما عجزت حكومة البلاد عن إنقاذ الوطن.

إن الحكومة الحالية لا تفكر إلاّ بمنافعها الخاصّة حتى لو باعت البلاد في أسواق لندن بثمن بخس[2].

إن دستور الإسلام المدوّن يوجب على المسلمين النهوض للدفاع إذا ما داهم الكفار بلاد الإسلام.

أما بريطانيا، فإنها لا تعرف الإسلام ولا العدالة، إنها مع قانون الأقوى.

وإن ما يجري في دنيا اليوم يدفعنا إلى إعلان الجمهورية في إيران وإنقاذ المقهورين والمعذبين من الطغمة المتسلطة.

إن المسؤولين اليوم لا يسمحون بحاكمية الدستور والحكم الديمقراطي؛ ومن هنا فإن وجداني يأمرني بأن أسعى في إسعاد وطني.

---

١. في الأصل الفارسي «سرمست» ومعناها الثَّمِل؛ أي الذي أسكره النصر المزيّف.

٢. إشارة إلى معاهدة ١٩١٩ التي وقعها وثوق الدولة مع الإنكليز.

إني سأجيب بما يجيب موسى في ثورته على فرعون، ومحمد في قيامه ضد أبي جهل، وبكل ما يجيب به الأحرار في محكمة العدل الإلهية.

إني أقف مع رفاقي، كما تقف مع أتباعك في خطين متقاطعين، وسنرى هل سيضحك العالم من أجسادنا أم سيمجّد فتوحاتكم»؟!

ثم يذكر كوجك خان في رسالته التي صدّرها بـ «هو الحق»[1]: إنه على افتراض كذب ما ورد في الرسالة، فهو يعني أنني لا أعدو أن أكون فرداً ينشد الجاه ويتّبع الهوى، وأنني أميل إلى وعودكم، فما كان جدوى ورقة حكومية ممهورة في أيدي الذين شُنقوا أو سُجنوا أو أُبعدوا[2].

«كيف تطلب مني الاستسلام بعد كل هذا الكفاح الطويل؟!».

«وفي الختام لا أرى قيمة للقاء من لا يعرفون شرف الكلمة» «الله بيننا وبينكم وهو الحاكم».

كوجك جنگلي[3].

وأعقب هذه الرسالة استمرار في الاشتباكات دون طائل، وما لبثت أن خفت حدّتها إلى أن وصلت إلى ما يشبه هدنة غير معلنة.

وقد استغلت الحكومة هذه الفرصة، وكلفت «أحمد آذري» بإجراء مفاوضات مع ميرزا وعقد مصالحة بين الطرفين.

وقد أبدى ميرزا استياءه من وثوق الدولة متسائلاً: هل يمكن لمن يعقد هكذا اتفاق (معاهدة ١٩١٩) أن يكون له الحق في تعيين مصير البلاد؟!

---

١. يصدّر ميرزا كوجك خان رسائله بـ «هو الحق» - سردار جنگل - ٢١٩.

٢. يشير كوجك خان إلى شنق الدكتور حشمت وإلقاء حاجي أحمد في السجن ونفي المجاهدين هنا وهناك.

٣. سردار جنگل - ٢٢٠.

وقد أسفرت المفاوضات بين الطرفين في النهاية عن اتفاق لوقف العمليات الحربية لحين افتتاح مجلس الشورى الوطني ومعرفة مصير المعاهدة.

وخلال مدّة الهدنة هذه يلتزم المجاهدون بعدم التدخل في الإدارة، فيما يتحمل كوجك خان مسؤوليته في غابات فومن بالنيابة عن الحكومة.

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٠، صدر بيان عن حكومة گيلان حول الاتفاق معتبراً ميرزا كوجك من رجال الوطن»[١].

وقد سبق هذا التطور حملة دعائية حاولت الحكومة من خلالها التشكيك بأهداف ميرزا كوجك خان وأنه يسعى وراء أهداف لا إسلامية، ولذا كان الذين يناصرون الحركة في طهران وغيرها من المدن يراجعون زعماء دينيين للإفتاء في الموضوع، وكان موقف الشهيد حسن المدرس حاسماً، واعتبر المساعي المضادة للحركة الثورية بقيادة ميرزا كوجك انتصاراً للكفر وعناداً للإسلام[٢]، ويعدّ هذا الموقف الشجاع في تلك الفترة العصيبة انتصاراً للحق والحقيقة في زمن مرّ.

ولعلّ هذا الموقف الجريء هو وراء اندفاع الحكومة فيما بعد لعقد مصالحة مع قائد الحركة؛ مصالحة أشبه ما تكون بهدنة ووقف لحالة الحرب ولو إلى حين.

---

١. المصدر السابق - ٢٢٢.

٢. أفتى آية الله حسن المدرس بما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم..
لا أرى لدى السيد ميرزا كوجك خان ولا لدى الأشخاص الذين يشاطرونه الرأي بإخلاص وصدق؛ شائبة تجاه دين البلاد وصلاحها؛ بل إنهم يقفون بوجه النفوذ الأجنبي وسياسته في گيلان، وهو عمل مقدّس واجب على كل المسلمين.
أدعو الله أن يوفق جميع الإيرانيين للسير على خطاهم.
وإذاً؛ فمن الواضح أن محاربة ومعاداة هذه الحركة هو مساعدة للكفر وعناد للإسلام». في شهر جمادى الثاني ١٣٣٨
سيّد حسن المدرس
حماسة ميرزا - ٧٨ بالاستناد إلى كتاب: «قيام جنگل».

ولقد كان الاتفاق طعنة في الصميم توجب على كوجك خان أن يتحملها بصبر وألم دفين.

وهكذا ساد الهدوء المشوب بالحذر غابات گيلان، الهدوء الذي يسبق هبوب العاصفة، فلقد أضاء مشهد جديد غيّر من مسار الأحداث محدثاً انعطافة في تاريخ الثورة، ليتمخض فصل مثير من فصولها الملحمية.

الفصل الثالث: ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

«وما حصل في اليوم الثاني كان بداية لسياسة النفاق السوفيتية التي أصبحت قاعدة أساسية في مواقفها مع قضايا العالم الثالث..»

منافقو القرن العشرين

تركت الثورة البلشفية أصداءً مدويّة في العالم؛ لأنها جاءت في ظروف عاصفة عالمياً، وكانت الأدبيات البلشفية وأنباء الأحداث الجارية في روسيا تناقش حتى في العتبات المقدّسة في العراق مع تعاطف مع البلاشفة انطلاقاً من موقفهم من البريطانيين في الشرق.

حتى لقد أشيع مثلاً أن الشيرازي (محمد تقي) الزعيم الديني في ثورة العشرين قد أصدر فتوى نص فيها على اعتبار البلاشفة من أصدقاء الإسلام[١].

ومن هنا؛ فإن ما يحدث داخل روسيا كان يجد له انعكاساً في إيران خاصّة بسبب الحدود المشتركة وما يجري في إيران وموقف الإنكليز من الثورة ودعمهم لأعدائها.

---

١. العراق «نشأة الدولة - ٤٢٣».

وفي وقت مبكر؛ أي منذ نهايات ١٩١٧، نشأ حزب العدالة كنواة لحزب شيوعي إيراني، وذلك بقيادة بيشاوري، وكان في بدايته تنظيماً عمالياً.

وفي حزيران ١٩٢٠، اجتمع ممثلو حزب العدالة في ميناء أنزلي على بحر قزوين، واعتبروا اجتماعهم مؤتمراً تأسيسياً للحزب الشيوعي الإيراني[١]، وقد جاء هذا الاجتماع كإجراء تحميلي مفروض بسبب سطوة الغزاة السوفيت الذين اجتاحوا الشمال الإيراني قبل حوالي شهر من التاريخ المذكور.

ومن المؤكد أن الغزو السوفيتي جاء بعد هزائم أعداء الثورة البلشفية المدعومين بريطانياً.

على أن كثيراً من علامات الاستفهام ما تزال حتى الآن قائمة حول موقف الإنكليز المعقد إزاء ما يجري في روسيا.

فبينما نجد بريطانيا تساند الجنرالات المضادين للثورة البلشفية نراها تخلي مواقعها ودفاعاتها القوية في «غازيان» شرق ميناء أنزلي تاركة الجيش الأحمر السوفيتي يتقدم دون مقاومة تذكر، وقد أثار موقف الإنكليز المحيّر هذا ضجة في مجلس العموم البريطاني عن سرّ انسحاب ما يقرب من تسعين ألف جندي بريطاني وهندي أمام عدّة سفن حربية تحمل بضع مئات من الجنود السوفيت تاركين أسلحتهم!!

والحقيقة أن الإنكليز قد حققوا من وراء هذه الخطوة مكاسب كبرى في صياغة الوضع في إيران وغيرها لصالحهم وبث الرعب في القلوب حول الخطر القادم: «الشيوعية»، ولهذا بدأ الحديث حول الدور البريطاني في حماية إيران من الخطر.

وقد تزامن مع هذا الإجراء الإنكليزي الماكر، انهيار أمني في طهران، عندما

---

١. موسوعة السياسة - ٢ - ٣٥٢.

راحت بعض العصابات تنشر الرعب بين المواطنين، وبدت الحكومة عاجزة تماماً، فتوفرت الظروف لخطوة إنكليزية قادمة في صنع البطل القومي الذي يمكن إنقاذ البلاد على يديه!

موقف الغابة

كانت تلك السطور مجرّد إضاءة على المسرح السياسي من أجل تفهّم موقف سيّد غابات الشمال الذي كان ولا شك ينطوي على آلامه بسبب ما يجري في إيران من اضطهاد واستبداد وقهر وانفلات أمني[1].

كان ميرزا كوجك خان قد تسلّم رسالة مثيرة من اللجنة الثورية في مدينة لنكران على الساحل الغربي من بحر قزوين، وكانت الرسالة زاخرة بكل مشاعر الثورة والعداء «للبرجوازية» الإنكليزية والاستعمار، والتضامن مع فلاحي وعمال إيران.

وهكذا؛ يمكن القول إن تلك الرسالة كانت بداية النفاق السوفيتي حيث تصبح الثورة مجرّد شعار، أمّا ما يجري في شرايين من يرفعونها، فهو دم أزرق ربّما اكثر زرقة من دماء «النبلاء» في روسيا القيصرية!

ولقد كانت ثقافة العنف أول ما تمخضت عنه الشيوعية الدولية، كما أن صعود لينين قد حدّد ولا شك اتجاه الثورة، كما حدّد أيضاً أخلاقيتها من خلال «مجموعة عقد ومركبات نقص»[2] كان يعاني منها القائد الروسي، ومن خلال جذوره اليهودية النافذة في تكوينه النفسي، وأخيراً من خلال تمهيد الطريق لخليفته «ستالين» الذي لا تحتاج شخصيته الدموية إلى توضيح.

---

١. أقدمت الحكومة المركزية على شنّ حملة اعتقالات واسعة طالت الذين أبدوا معارضتهم لاتفاقية ١٩١٩ وفي طليعتهم آية الله حسن المدرس. وفي تلك الفترة ظهر الشيخ محمد خياباني، وهو نائب تبريز في مجلس الشورى، الذي قاد حركة معارضة مسلحة في تبريز ضد الفساد الحكومي، وحاول التنسيق مع كوجك خان، ولكن الأخير كان يمرّ بظروف قاهرة.

٢. الحرب العالمية الأولى - ٣٨٩، عمر الديراوي.

وخلاصـة القول إن الشيوعية السوفيتية قد واجهت تحدّيات واختباراً لمحتواها الأخلاقي، استجابت لها في حالة مروّعة من النفاق الدولي في الخارج وقسوة لا حدود لها في الداخل.

وربما كان من المقدّر لگيلان على الأقل أن يكون مصيرها كمصير القفقاز[1] لو لم يكن حضور كوجك خان بتلك الكثافة.. ذلك الحضور الأخلاقي الذي مكّن صاحبه من ولوج الضمير الإيراني فيما بعد.

وخلال الفترة التي شهدت اندلاع الحرب الكونية الأولى وحتى نهاية مؤتمرات الصلح، لعب البريطانيون الدور الأول في السياسة الدولية، وفي صياغة منطقة الشرق الأوسط بكل مشكلاته وبؤر التوتر في داخله.

بل وكانت بريطانيا تمثل في كثير من الأحيان ركناً أساسياً في مسار الأحداث في كل من العراق، الحجاز، فلسطين، تركيا، أفغانستان، إيران.

ولقد كانت للإنكليز برامجهم وخططهم فيما يخص مستقبل العالم بعد نهاية الحرب، إلا أن انفجار الثورة البلشفية في غمرة الحرب الأولى جاء مربكاً للإنكليز، ولكنّ الاتجاه الثوري الذي سيطر أخيراً مكّن البريطانيين من احتواء «الخطر الشيوعي»؛ بل والإفادة منه بعد تهويله، وبالتالي صياغة منطقة مترامية الأطراف بالطريقة التي تُمكّن من بسط النفوذ فيها[2].

وفي كل الأحوال؛ فانّ الإضاءات الجديدة التي حدثت في مسرح الأحداث شمال إيران قد انعكست ظلالها بشكل مثير وسريع مبلورةً الأوضاع والمواقف ومسار الأحداث في الشمال الإيراني.. بشكل معقد ومربك في أغلب الأحيان.

وقد بدأت إضاءات الحدث الروسي كما يلي:

---

١. جريدة إيران - ٨ حزيران ـ ١٩٢٠ ـ نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية» - ٢٧.

٢. مجلة العربي الكويتية العدد ٤٢٥ - ١٩٩٤ ص١٩٧ ـ قراءة في كتاب «سلام ما بعده سلام» ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ ـ ١٩٢٢.

رسالة من لنكران

في غمرة ذلك الألم، وصلت ميرزا كوجك رسالة من أذربيجان.. من لنكران إحدى مدن الجمهورية الجديدة.. كانت الرسالة مشحونة بالغضب ضد الاستعمار والجرائم الإنكليزية:

«إننا وانطلاقاً من أخوتنا نشعر بالألم لما يجري على الإيرانيين.. لقد قضينا على أعدائنا أولئك الخونة، ولهذا تأخرنا في تقديم الدعم إليكم.. وها نحن على أتم الاستعداد لنجدتكم ما طلبتم ذلك..

نقدم إليكم نوط: «ر. س. ف. س. ر» مع مسدس «رولور» تعبيراً عن عميق حبنا واحترامنا»[1].

---

١. منذ سقوط الحكم القيصري وأثناء الحرب العالمية الأولى، نهضت حكومة مستقلة في أذربيجان بعد تقدم الجيوش العثمانية في جبهة القفقاز، وفي سنة ١٩٢٠ قام كمال «آتاتورك» ببيع أذربيجان للبلاشفة، وذلك عندما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركيا، وبعد أن دخل البلاشفة بهذه الحيلة إلى أذربيجان، لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشاً إلى تركيا!
الرجل الصنم - ٤٠٨.
وقد استمرت المقاومة في أذربيجان ولم يحكم البلاشفة سوى باكو العاصمة، وكان أنور باشا القائد العام للجيوش العثمانية يتزعم المقاومة حتى مصرعه سنة ١٩٢٢، واستمرت المقاومة بعده حتى سنة ١٩٢٤.
مطالعات آسياى مركزي وقفقاز ٢ - ٣٢.
وقد ورد في الرسالة التي كانت مجرّد غطاء كاذب للإنزال السوفيتي على الشواطئ الإيرانية: إننا لم نعد نخشى إنجلترا، وإن هدفنا الحالي هو تحرير الشرق من تجاوزات البرجوازية الإنكليزية. سوف نذيق الإنجليز مرارة الموت، ونعمل على تحرير «إيران، أذربيجان، تركيا، أفغانستان، والهند». إن من الضروري أن تتضامن كل الشعوب، وما دامت البرجوازية الإنكليزية في أوج قدرتها، فليس لنا أمل في السلام.. لقد بدأ تحرر الشرق من النفوذ الإنكليزي. لقد أطاح الأذربيجانيون بالحكومة البرجوازية التي كانت وسيلة بأيدي الإنكليز، وأقامت مكانها حكومة سوفيتية..
ولقد أعلنت أيها الرفيق كوجك خان الحرب على إنجلترا من أجل إنقاذ الوطن من قبضة اللصوص الإنجليز..» - سردار جنگل ٢٢٧.

ولا شك أن الرسالة التي تسلّمها كوجك خان من لجنة «لنكران» قد بعثت في قلبه الأمل.. الأمل بانتصاره على عدوّه المدجج بالسلاح والغدر.

ولقد قلّب ميرزا الأمـور، فلم يجد سوى أن يغامر بنفسه متحمّلاً جميع المخاطر للاطلاع على الحقائق عن كثب.

من أجل هذا، قام ميرزا برحلة سرّية مع اثنين من رفاقه هما في الحقيقة سيكونان دليليه في الطريق المحفوفة بالأخطار.

قام ميرزا بارتداء زي آخر، ولقد كان على الثلاثة أن يقطعوا الطريق مشياً على الأقدام حتى لا يثيروا الشكوك خلال الطريق عبر الغابات.

ومضت الأمور بشكل عادي في اليومين الأولين، وفي اليوم الثالث نفدت مؤونتهم من الطعام، فاضطر أحد الدليلين للذهاب إلى السوق لإحضار قدر من الخبز والماء، ومن سوء الحظ تعرّفت الشرطة على هوّيته فألقي القبض عليه.

وإذا بمجموعة من الفرسان تقتحم على ميرزا ورفيقه المكان، ولكن ميرزا عالج الأمور بحكمة عندما أقنع المهاجمين بأنه سيترك المنطقة بأسرع وقت؛ إضافة إلى مكافأة مالية تسلموها مغتبطين دون أن يعرفوا هوّية الرجل الذي يحدّثهم مكتفين بواحد من الثلاثة.

وبالرغم من تشديد «أمير مقدر» في القبض عليهما بعد تسلّمه تقرير إلقاء القبض على أحد المجاهدين، إلا طلعات البحث قد أخفقت، واختفى ميرزا لكأنما ابتلعته الغابة!

وقد أنهكت الرحلة ميرزا ورفيقه وساءت حالته، وذات ليلة تدهورت صحته وغاب عن الوعي، وعمد رفيقه فدثره بـ «بطانية» تاركاً إيّاه في منعطفات الطريق.

ولقد أفاق كوجك خان من الإغماء ليجد نفسه وحيداً حائراً لا يدري ماذا يفعل! وليس في وجوده سوى رمق حياة لا يمدّه إلاّ بخطى معدودة، لقد خارت

قواه تماماً ولم تعد له قدرة على صدّ ضباع الغابة أو ذئاب الحكومة.

فنظر إلى السماء وراح يجرجر خطاه نحو مصير مجهول، ولقد مكنته إرادته الفولاذية أن يقطع مسافة ميل واحد في يوم كامل؛ ليصل إلى مقهى يقدّم الخبز والشاي للمسافرين عبر الغابات.

دلف ميرزا المقهى، وبدا كأنه أحد الدراويش الذين يهتفون من أعماق قلوبهم: «هو الحق»، وهي ذات الجملة التي يصدّر فيها ميرزا رسائله!

غير أن صاحب المقهى راح يتفرس في وجه الرجل الغريب الذي يكاد ينهار من فرط الإرهاق، وكادت الأمور تمضي بشكل عابر، لولا أن صاحب المقهى وجد نفسه أمام وجه رآه في حلم أقض مضجعه ذات ليلة.

قال صاحب المقهى: رأيت رجلاً نورانياً يأمرني بمساعدة رجل واقف إزائي يقف في ذات المكان الذي تقف فيه.. والآن أخبرني من تكون.. من جاء بك إلى هذه الأطراف؟

ويعلن ميرزا هويته بصراحة، فإذا بالرجل ينهار عند قدمي قائد الغابة، وبعد أن قدّم له الطعام سأله عن أخيه الذي يحارب في ركابه، فأخبره باستشهاده في المعارك الأخيرة. أجل؛ لقد استشهد محمود استارائي في معركة «سياهرود». رحمه الله لقد كان رجلاً شجاعاً.

وهكذا وجد ميرزا أن السماء لم تتخلّ عنه، فبعثت في طريقه من يساعده ليوصله إلى لنكران، وقبل أن يصل قائد الغابة المدينة، سمع بأنباء مثيرة تفيد بمغادرة الجيش الأحمر لنكران، فعاد القائد أدراجه من حيث أتى!

الاجتياح الأحمر

في ١٨ آيار، احتل الجيش الأحمر شواطئ «غازيان» بعد قصف مدفعي ليزحف باتجاه ميناء أنزلي، وانسحبت الجيوش الإنكليزية التي تعدّ بعشرات الألوف أمام

بضع مئات من الجنود السوفيت.

ولعب الإنكليز أمهر لعبهم السياسية عندما بـدأوا العزف على الخطر السوفيتي القادم.

ولكن ما يثير الدهشة والتساؤل تلك الفاصلة في التبرير بين رسالة لنكران والتفسير الرسمي للغزو الروسي[1]!

فالرسالة تعرض استعداد «الإخوة» في أذربيجان لتقديم العون لإخوانهم في إيران وأنهم ينتظرون «الاستغاثة» وطلب النجدة فقط.

وما وقع بشكل مثير أن الجيش الأحمر لم ينتظر ردّاً من قائد الغابة؛ بل اتخذ قراراً بالغزو من غير مشورة ولا موافقة مصطحباً معه بعض الشيوعين الإيرانيين وفي طليعتهم «بيشاوري» زعيم حزب العدالة الذي سعى وبعد أربعة أشهر إلى عقد مؤتمر في أنزلي معتبرين هذا الاجتماع بداية التأسيس للحزب الشيوعي الإيراني[2]!

وهكذا نجح الإنكليز في إشاعة الخوف داخل إيران من الخطر القادم. لقد نجحت اللعبة: إن غياب الإنكليز معناه الفوضى والقلق وانعدام الأمن.

---

١. جاء في التفسير الرسمي للغزو السوفيتي:
مطاردة أعداء الثورة من الحرس الأبيض وفلول الجنرال المتمرّد «دينيكن» وحماية الخطوط التجارية عبر بحر الخزر. سردار جنگل - ٢٣٧.

٢. لم تتغلغل الشيوعية في إقليم گيلان أبداً حتى بعد التجمع الشيوعي الذي تم تحت ظلال الحراب الروسية، ولذا فإن اعتبار هذا الاجتماع ـ الذي هو أقرب ما يكون للتهريج السياسي ـ تأسيساً هو تعسّف واضح.
«وحزب العدالة قد نشأ سنة ١٩١٧ بعد ثورة أكتوبر الروسية، وهو تنظيم عمّالي بقيادة بيشاوري له فروع في تبريز، أردبيل، زنجان، مازندران، قزوين، طهران، ومشهد.
وفي حزيران ١٩٢٠، اجتمع ممثلوا الحزب في أنزلي على البحر واعتبروا اجتماعهم مؤتمراً تأسيسياً للحزب الشيوعي الإيراني».
موسوعة السياسة ٢ - ٣٥٢.

وأظهرت بريطانيا نفسها بصورة المنقذ، وعادت معاهدة ١٩١٩ لتُنفّذ بدقة ولو بشكل غير رسمي. لقد سقطت الضحية في الفخ.. سقطت التفاحة في قبضة الإنكليز.

استقبلت إيران الاجتياح السوفيتي بذهول وترقب؛ بالرغم من الاحتجاج الرسمي للحكومة الإيرانية.

أما الإنكليز، فتظاهروا بمشاركة الحكومة اهتمامها بالموضوع وتبنيهم إلى حدٍّ ما المسألة بعد لجوء الحكومة وطلبها من الإنكليز الإبقاء على قوّاتهم، فتحقق هدف بريطانيا في معاهدة ١٩١٩ الانكلوايرانية.

وكان من البديهي أن يترك الحدث أصداءً في الغابة؛ فاجتمع ميرزا مع رموز الجهاد في الغابة، وتقرر أن يذهب ميرزا بنفسه إلى ميناء أنزلي، ليطلع عن كثب على أهداف السوفيت، فنهض وهو يتمتم بآية طبعت مساره في السنوات الأخيرة: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

كان ميرزا يعيش هواجس المستقبل، ولم يكن مطمئناً لنوايا الروس حتى بعد الثورة.

وسنرى كوجك خان فيما بعد يعيش حالة الحذر، فكل علاقة للحركة ستكون داخل إطار اتفاقية رسمية تأخذ بنظر الاعتبار استقلال إيران تماماً عن أيّة وصاية أجنبية مهما كانت المبرّرات.

كان ميرزا كثائر لا يرى الخلاص من الإنكليز باللجوء إلى أجنبي آخر..

ومما يدعو إلى إجلال هذا الرجل، الذي ذرّف على الأربعين، هو ثباته على المبادئ بالرغم من عصف الخطوب وتقلبات الأيام وغدر الرفاق.

وقد اكتشف كوجك خان حقيقة الثوّار الشيوعيين، وأنهم لم ولن يصبحوا ثوّاراً حقيقيين؛ إذ وصفهم بالمنافقين، وهذا الوصف بطبيعة الحال أطلقه الثائر

على شيوعيي جمهورية أذربيجان، وكان ميرزا يظن إلى حدٍّ ما أن موسكو غائبة عن الأحداث، وأن لينين قد لا يراقب ما يقوم به الرفاق في شمال إيران المرتبطين مع حكومة باكو.

لقاء في أنزلي.. حربة النفاق الدولي

بالرغم من أن ميرزا بعث من ينوب عنه في لقاء رموز السوفيت في أنزلي إلاّ أن إصراراً من الطرف الآخر على لقاء الزعيم الثائر لم يترك وقتاً للتفكير أكثر.

فانطلق ميرزا إلى أنزلي الميناء الإيراني المحتل للقاء الروس القادمين لأهداف غير واضحة تماماً.

ومنذ اللقاء اكتشف زعيم الغابة أنه لا يختلف مع القادة الحمر فحسب بل ويتناقض معهم.

وكان الاستقبال الشعبي في أنزلي قد كشف إلى حدٍّ كبير عمق الحبّ والولاء الذي يضمره الناس لميرزا الذي بدد في حضوره حالة الخوف التي بعثها الحضور العسكري الروسي، وما يرد من أنباء حول ما يجري في القفقاز.

ووجد ميرزا نفسه أمام قادة البلاشفة وبعض الشيوعيين الإيرانيين.

ويمكن أن نسجل أن اللقاء قد ترك آثاراً ظهرت فيما بعد، ولعلّ ميرزا كان يتفحص مفاوضيه حول آفاق الثورة في المستقبل.

كان يشعر بالغربة بين هؤلاء.. ذلك أن ميرزا وبطبيعة تكوينه الفطري وتربيته الدينية ومبادئه التي آمن بها لا يلتقي مع هؤلاء الذين ينظرون إلى الدين كميراث قديم و..

لم ير ميرزا سوى شخص واحد كان يحمل في أعماقه همّاً إنسانياً، ذلك هو

غافك[1] الذي سمّى نفسه «هوشنگ»[2]، وهو اسم من صميم الثقافة الإيرانية.

وقد حمل اللقاء الأول بكل تناقضاته بذرة الإخفاق، ولم يسفر عن نتيجة، وانفض الاجتماع وفي قلب ميرزا حذر من هؤلاء الثوّار.. حذر سوف يجعله لا يطمئن إلى تعاون مالم يحرّر في إطار ميثاق أو معاهدة رسمية.

وما حصل في اليوم الثاني كان بداية لسياسة النفاق السوفيتية التي أصبحت قاعدة أساسية في مواقفها من قضايا العالم الثالث الذي ما يزال آنذاك رازحاً تحت هيمنة الاستعمار الثلاثي[3].

لقد وصل «ارژنيكيدزه»، وهو مسؤول كبير في القفقاز، ومعه سفينة مشحونة بالأسلحة، وليشترك في مفاوضات اليوم التالي؛ فوقف خطيباً في رفاقه الروس:

- أيها الرفاق إنّ الحق مع هذا الرجل! إنّني أؤيد آراءه بلا نقاش! وإنني أطلب منكم تأييده!

وبهذا الموقف قطع «ارژنيكيدزه» المفاوضات لصالح كوجك خان.

وكانت خطوة غاية في الذكاء: من الممكن التظاهر بتأييده فعلاً ريثما يتم ترويضه أو..!

وخلال صياغة ميثاق التعاون أظهر كوجك حزماً، وتعامل مع مفاوضيه متحملاً مسؤولية شعب كامل ومصير أمّة. وجاء في الاتفاق:

- عدم تنفيذ برنامج الشيوعية أو الدعاية لها.

---

١. ألماني انتمى للبلاشفة لأهداف إنسانية، تأثر بشخصية ميرزا كوجك خان، وأصبح من أبرز المخلصين له، رافق كوجك خان حتى النهاية.
ولعلّ إنسانية الثائر الإيراني كثوري يسعى لخلاص المقهورين هو الجانب الذي بهر «غافك» الذي رافق كوجك خان في كل المنعطفات الخطيرة.

٢. ملك إيراني اشتهر بعدله.

٣. بريطانيا وفرنسا وأميركا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

- الإعلان عن تأسيس جمهورية ثورية موقتة.
- يكون انتخاب شكل النظام بعد تحرير طهران، وتشكيل مجلس تأسيسي يتم انتخابه من قبل الشعب.
- يمتنع السوفيت عن تعزيز قوّاتهم والاكتفاء بالقوّة الفعلية (٢٠٠٠ جندي).
- تتحمل حكومة الجمهورية الإنفاق على القوّة العسكرية.
- تدفع حكومة الجمهورية كل مبالغ الأسلحة المطلوبة.
- الإفراج عن السلع المضبوطة في باكو والتي تعود ملكيتها إلى ايران.
- تخويل حكومة الجمهورية إدارة كل المؤسسات الروسية في إيران[١].

وبعد هذا الاتفاق، قفل كوجك خان عائداً إلى الغابة، وتم الانتقال إلى مرحلة التنفيذ.

إن النقاط أعلاه تؤكد النظرة البعيدة لقائد الغابة وحذره في التعامل مع جارة إيران في الشمال؛ فجاء الاتفاق متوازناً وضع فيه كوجك خان السدود أمام أي تدخل وتحت أيّ ذريعة في شؤون البلاد؛ كما صان بموجب هذا الاتفاق أمن گيلان من العبث الشيوعي المدعوم بقوّة الحديد والنار والمدافع.

فالشيوعيون كانوا متحفّزين لتنفيذ برامجهم بنفس الطريقة التي نفذت في القفقاز، والتي حاولوا إعادتها في گيلان بعد الانقلاب الأحمر الذي سيحدث فيما بعد.

---

١. لم يكن كوجك خان متحمساً فيما يبدو لإعلان الجمهورية بدليل بقاء الجمهورية دون تسمية رئيس، ورأي كوجك خان أن المجلس التأسيسي الذي سينتخبه الشعب هو الذي يحدد شكل وهويّة النظام فيما بعد.
وقد جاء إعلان الجمهورية في زمن شهد تأسيس هذه النظم في القفقاز.
على أن الإعلان الذي اشتمل على تسعة بنود جاء متوازناً إلى حدّ ما، وقد حقق ولا شك بعض أهداف ثورة الغابة وجسّد خطّها خاصّة البند الأول الذي منع بشكل صريح تنفيذ البرنامج الشيوعي - سردار جنگل ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

ميلاد الجمهورية

وفي فجر ١٦ رمضان ١٣٣٨، وصل ميرزا كوجك خان رشت، واستقبل خارج المدينة استقبالاً شعبياً واسعاً؛ حيث قام الأهالي بنثر الورود، وإطلاق الأهازيج.

وألقى ميرزا كوجك خطاباً حماسياً ذكر فيه انتصار الحق على الباطل وهزيمة الشيطان أمام جند الله. أما «إحسان الله خان»، فقد تحدّث عن فداء وتضحيات المجاهدين وحيّا أرواح شهداء الحرّية، وقطع العهد بتهديم قصور الظلم على ساكنيها.

وكان يوماً تاريخياً سجلته ذاكرة الجيل[1].

وبعد يومين؛ أي في ١٨ رمضان، صدر بيان رسمي يعلن إلغاء الحكم المَلَكي وقيام الجمهورية، وقد تصدرت البيان كلمة لها مدلولها وهي: «هو الحق» التي تجسّد نفوذ ميرزا في صياغة البيان خاصّة وأنه كان يصدّر رسائله دائماً بهذه العبارة.

وقد جاء في البيان، الذي استعرض كفاح الشعب الإيراني وجهاده ضد الاستعمار، تأكيد حكومة الجمهورية على حماية أرواح وأموال عموم الأهالي.

كما وردت نقطة جوهرية؛ وهي إلغاء جميع المعاهدات التي تضرّ بإيران قديماً وحديثاً.

كما أن حكومة الجمهورية تعلن أن جميع البشر سواسية في الحقوق، وأن رعاية الموازين الإسلامية في طليعة الواجبات.

---

١. في ١٩ رمضان ١٣٣٨، صدر بيان في التشكيلة القيادية، وقد أمسك كوجك خان بالقيادة العامّة ورئاسة لجنة الحرب والدفاع، وبهذا يكون قد أمسك بمسار الثورة وصانها من أخطار الاحتواء أو الاختراق الأجنبي.
سردار جنگل ٢٥١.

وفَور الانتهاء من تلاوة البيان توجهت الحشود يتقدمها كوجك خان إلى ضريح المجاهد الشهيد الدكتور حشمت لقراءة الفاتحة.

وألقى ميرزا كلمته، فجاء صوته مختنقاً بعبرته، هاجم فيها وثوق الدولة وخيانة عبيد الأجنبي، وهاجم المعاهدة المذلّة، وعدّ استشهاد الدكتور حشمت خسارة كبرى «قصمت ظهورنا وما تزال»، ودعا الله التوفيق للأخذ بثأر الشهيد والاقتصاص من جلاّديه.

ومرّة أخرى تحدّث إحسان الله خان، فحيّا أرواح الشهداء وهاجم الإنكليز وطالب بتدمير مراكز الفساد وعملاء الأجنبي واللصوص.

ثم ختم كلمته الملتهبة بأن حيّا لينين قائد الثورة الحمراء وهتف عالياً «يحيا جيش الثورة»!

وفي غضون فترة وجيزة تشكلت لجان بمثابة وزارات لإدارة گيلان.

أما لجنة القيادة فقد ضمت «كاجنيف» قائد القوّات السوفيتية في إيران، وكامران آغايوف عضو حزب العدالة، وإحسان الله خان و«غافك»، و«مير صالح مظفر زاده»، وحسن آلياني المعروف بـ «معين الرعايا».

وكان ميرزا كوجك خان قائداً عاماً ورئيساً للجنة القيادة واللجان الأخرى[1].

---

١. كان ميرزا كوجك خان قد أرسل مندوبين إلى باكو لإطلاع «نريمان نريمانـوف»، رئيس مجلس السوفيت في جمهورية القفقاز، على ما يقوم به حزب العدالة من تخريب، وأن نشاطهم سوف يلحق إضراراً بالثورة؛ بل يهدد استمرارها، غير أن نريمانوف وبدل الإصغاء إلى النصائح كان يحاول التشكيك في توجهات كوجك خان، وقد ظهر فيما بعد أن قيادة باكو كانت تخطط لحركة انقلابية للإطاحة بقيادة كوجك خان وتوجيه مسار الثورة بما يخدم الأهداف الشيوعية.
سردار جنگل - ٢٦٧.

تيار النفاق الشيوعي

وعندما أحكمت الثورة قدرتها في مدينة رشت، كان على قوّات القوزاق أن يكونوا جيشاً في خدمة الحكم الجديد. والذي حصل أن قائد القوّات لم ولن يعترف بحكومة الثورة، فزحف المجاهدون وأطبقوا الحصار على المعسكر بعد أن أخفقت الوسائل السلمية والمفاوضات، وحدثت اشتباكات عنيفة بدأت منذ سحر ٢٨ رمضان ١٣٣٨.

وانتهت المقاومة باقتحام المعسكر واستسلام الضباط الذين ألقي القبض عليهم.

وقد ظهرت نعرة تطالب بمحاكمتهم جميعاً، وهي نعرة ولا شك شيوعية رفضها ميرزا الذي قرّر إطلاق سراح الجميع ومنحهم نفقات العودة إلى أهليهم.

كان الشيوعيون يعملون في الخفاء من أجل تعزيز مواقعهم، وفي تلك الفترة ظهرت الصحف الشيوعية من قبيل «إيران سرخ» و«كامونيست».

وبالرغم من أن كاجنيف لم يكن متحمساً للنشاط الشيوعي إلا أن «ابوكوف» الذي ينحدر من أسرة تترية على عكسه.

وقد استدعي كاجنيف إلى موسكو مخلياً مكانه لـ «ابوكوف» الشيوعي حتى النخاع، وبهذا تهيّأت أجواء مناسبة للشيوعين الإيرانيين للعمل كيف ما يشاؤون.

وقد حاول كوجك خان الوقف بوجه المدّ الشيوعي الذي ساعد على توسعه الانتشار العسكري، والتحاق المئات والآلاف بالقوّة العسكرية لحركة الغابة والتي كانت تميل إلى من يمنحها صلاحيات أوسع.

ونجد هنا القوّة الكردية بقيادة «خالو قربان» تحقق بعض التقدم العسكري.

ولا شك أن الحضور السوفيتي كان يشكل عمقاً استراتيجياً للمدّ الشيوعي الذي بدأ يبشر بأفكاره وبرامجه علناً؛ وهكذا بدأ حزب العدالة الذي تأسس في باكو يروّج

لأفكاره ضارباً عرض الجدار الاتفاق الذي يمنع الدعاية الشيوعية في گيلان.

وقد حاول قائد الغابة أن يطوق الخطر من خلال تذكير القيادة في باكو بأضرار الدعاية التي يقوم بها حزب العدالة، فبعث من أجل ذلك وفداً، ولكن كلمات كوجك خان لم تلق آذاناً صاغية، وأصبحت المذكرات والاحتجاجات طرقاً على حديد بارد[1].

وهكذا وصلت الأمور إلى نقطة الانفجار، كان الشيوعيون في حزب العدالة يعّدون العدّة لانقلاب دموي يزيح كوجك خان عن الطريق.

الانقلاب الأحمر

كانت السماء مشحونة بالغيوم، وبدت الأشياء باهتة بلا ظلال، وكان الناس حيارى ذلك الصباح الغائم لكأنهم يبحثون عن ظلال لهم فوق الأرض الموحلة بسبب أمطار غزيرة.

في يوم ٢٢ شوال؛ ٩ تموز ١٩٢٠، غادر كوجك خان رشت عائداً إلى الغابة احتجاجاً على ما يجري في رشت من تجاوزات يقوم بها أعضاء حزب العدالة[2].

وكانت القيادة السوفيتية في موسكو تلعب دورها من وراء ستار، وكان استدعاء كاجنيف إلى موسكو ودعوة «ارژونيكيده»، وهما أبرز المؤيدين لسياسة كوجك خان، يعدّ انتصاراً لحزب العدالة الذي راح يمضي قدماً نحو تفجير الموقف.

وفي ٢٤ شوال؛ أي بعد أسبوع واحد من خطوة كوجك خان الاحتجاجية، بدأ

---

١. كتبت صحيفة إيران بتاريخ ٦ تموز ١٩٢٠ ما يلي: «تفيد الأنباء عن استياء ميرزا كوجك خان وأنصاره من تصرفات بعض الرموز السوفيتية والوافدين الأجانب.. ويعلن أهالي گيلان رضاهم عن حضور ميرزا كوجك، ويعتقدون أن غيابه سيجعل من الأوضاع شبيها لما يحدث في باكو». المصدر السابق - ٢٦٧.

٢. نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية».

حزب العدالة عمليته الانقلابية باعتقال جميع أنصار كوجك خان في كل مكان.

وكانت الخطة تقضي بإلقاء القبض على كوجك خان نفسه أو تصفيته، وبالتالي الإمساك بزمام الأمور.

وهذا ما يؤكد أن كوجك خان كان يراقب ما يجري بحذر، وكان يشعر بأن الأفق مشحون بالمؤامرة، ففضّل العودة إلى الغابة وتفويت الفرصة على المنافقين.

ومن خلال التشكيلة القيادية الجديدة نكتشف تورّط رفاق ميرزا الذين كانوا يظهرون له التأييد ويبطنون له الحقد:

فقد احتل «إحسان الله خان» موقع كوجك خان القيادي، فيما أصبح خالو قربان بلجنة الحرب، وأصبح «بيشاورى» رئيساً للجنة الداخلية.

كان الروس يؤيدون الحركة الانقلابية البلشفية؛ بل كانوا هم المخططين لها؛ حيث برز أبوكوف القائد العام للقوّات السوفيتية في إيران، ويكشف البرنامج الحكومي الجديد عن نوايا أكيدة لتنفيذ الخطط الشيوعية في إيران:

- يكون نظام الجيش الإيراني شبيهاً بما هو عليه في الجيش الأحمر والإعداد للهجوم على طهران.
- إلغاء الملكية الشخصية.

وقد أسفر الانقلاب العسكري عما يلي:

- فشل الهجوم العسكري على إقليم «مازندران» الذي أسفر عن خسائر جسيمة.
- انسحاب من جبهة منجيل، وانسحاب من جبهة قزوين.
- استيلاء القوّات الحكومية (القوزاق) على كل مازندران.
- احتراق «بازار» رشت والذي أسفر عن خسائر كبيرة.

- قيام الانقلابيين بحفر القبور وتهديد الأهالي بدفع المال وإلّا دفنوا أحياء!

وقد حاول الانقلابيون القضاء على كوجك خان بالهجوم على الغابة، مما اضطر الأخير إلى الانسحاب إلى مناطق وعرة والاحتماء بها تفادياً للاصطدام مع أبناء الوطن.

مؤتمر الشرق

وفي أيلول ١٩٢٠، بدأ مؤتمر الشرق أعماله في باكو عاصمة أذربيجان، وحضرته وفود من أنحاء عديدة من العالم.

مثّلت گيلانَ عناصرُ انقلابية في طليعتها بيشاورى زعيم حزب العدالة الشيوعي، وكان بين الذين حضروا المؤتمر «حيدر عمو أوغلي» الذي دفع به السوفيت للإطاحة بميرزا كوجك في محاولة أخرى، وكذلك أنور باشا القائد العام للقوّات العثمانية ووزير الحرب الذي فرّ من تركيا بعد سقوط العاصمة العثمانية إسطنبول واستسلام الإمبراطورية.

وافتتح «نريمانوف» الرئيس الأذربيجاني المؤتمر الذي هاجم الرأسمالية الدولية! أعقبه تروتسكي الذي ألقى باللائمة على الثورة الفرنسية الكبرى لأنها أخطأت بحصر الثورة في باريس، ولم تشرك الفلاحين القوّة الكبرى، وأنها تركت الجيش الفرنسي بكامل أسلحته ولم تنزع سلاحه، فكان لها بالمرصاد، ولذا فإن على وفود الشرق أن تنتبه في المستقبل فلا تتكرر هذه الأخطاء[١]!

ومن المثير أن «أنور باشا» القائد السابق للجيوش العثمانية مُنع من إلقاء كلمته بسبب مخاوف روسية، وربما لقناعات تخالف أهداف الشيوعية الدولية[٢].

---

١. سردار جنگل - ٢٧٦.

٢. المصدر السابق - ٢٧٧. وكان أنور باشا عمّه الذي يصغره سنّاً «خليل باشا»، وقد انحط الأخير إلى أسوأ ما تصله النذالة في التحاقه بمصطفى كمال؛ بل وقدّم زوجته إليه! - الرجل الصنم - ٤٠٩.

عاصفة الأحداث

حاول ميرزا أن يوصل صوته إلى مؤتمر الشرق، فأرسل وفداً يذكّر رئيس المؤتمر بأن الانقلابيين لا يمثلون إيران بأي حال من الأحوال.

وكان ممثل كوجك خان رفيقه الوفي غافك إضافة إلى «مظفر زاده».

وكانا يحملان معهما رسالة كوجك خان إلى لينين.

وهي رسالة هامّة جدّاً تحدّد بوضوح شخصية الثائر الإيراني وصلابته ووعيه.

وقد ورد في الرسالة إشارات جديرة بالذكر في طليعتها:

تاريخ ثورة الغابة الذي يمتد إلى ١٥ سنة.

تأكيده على رفض الشعب الإيراني للفكر البلشفي.

إشارته إلى تجاوزات القيادة الأذربيجانية.

انتهاكات الزعامات السوفيتية للاتفاق الموقع في أنزلي والدعاية للشيوعية، التي أثّرت سلباً على وضع الثورة في إيران والتأييد الشعبي لها.

التدخل الأجنبي الروسي في الشؤون الداخلية والذي يصطدم مع أهداف الثورة في مكافحة كل أشكال التدخل الأجنبي «فقبل أن نوفّق في إنهاء تدخل دولة أجنبية[١] بدأت دولة أجنبية[٢] أخرى تدخلها في شؤون إيران.

وفي الرسالة أكد كوجك خان أنه لن يتخلى عن قراره في العودة إلى الغابة[٣].

كان كوجك خان يعتقد أن قيادة موسكو في غفلة عن تصرفات القيادة الأذربيجانية.

---

١. بريطانيا.

٢. إشارة إلى التدخل السوفيتي.

٣. سردار جنگل - ٢٧٩.

وكان الـردّ السوفيتي أن القيادة السوفيتية تؤجّل الجواب النهائي إلى المستقبل، وأن الموضوع لا يحوز أهمّية قصوى[1]!

وفي تلك الفترة العاصفة، كان «مشير الدولة» يسعى للتفاهم مع المجاهدين، ولكن كوجك خان لم يكن متحمساً بسبب اعتقاده بأن الحكومة الجديدة غير جديرة بالثقة سيما وأنها قد أظهرت جَلَد النمر تجاه الشيخ محمد خياباني؛ الذي يقود هو الآخر حركة مسلّحة ضد الفساد الحكومي والتدخل الإنكليزي.

وقد حاول خياباني ممثل تبريز في مجلس الشورى الوطني التنسيق مع ثوار الغابة بقيادة كوجك خان للإطاحة بالحكومة العميلة وإقامة نظام وطني. أرسل مبعوثه إلى قائد المجاهدين في الغابة، ولكن الأخير كان يمرّ في ظروف حرجة خاصّة بعد الانقلاب الأحمر الذي اضطره إلى الانسحاب وإخلاء قواعده في غابات «فومن».

ويشاء القدر أن يصاب ممثل خياباني بمرض مفاجئ فتدهورت صحته.

ولم تلبث تلك الشعلة الثورية في تبريز أن انطفأت بعد زحف القوّات الحكومية بأمر من مشير الدولة؛ حيث لقي الشيخ خياباني مصرعه في الاشتباكات.

وقد هزّت هذه الفاجعة قلب كوجك خان وملأته حزناً، ولو قدّر للطرفين التنسيق في المقاومة وتوحيد قواتهما في مجابهة العدوّ المشترك لتغيّر مسار التاريخ في إيران ولكن..

كان ميرزا الذي يتلقى الطعنات من كل صوب ينطوي على آلام لا تطاق.. آلام الإنسان المقهور الذي ينوء بحمل أمانة ثقيلة؛ أمانة الإخلاص للوطن والمبادئ.

وفي ذلك الزمن المرّ حيث حطّمت الشيوعية الدولية مقدسات الإنسان، لم يبق أمام الثائر الإنسان إلاّ أن يقود أنصاره وجنوده في انسحاب إلى قلب الغابات

---

١. حماسه ميرزا - ١٠٣.

حيث لا يمكن للطغاة والمنافقين الوصول إليه.

تبادل كوجك خان رسائل مع شخصية روسية وصلت بعد الانقلاب الأحمر، حاول كوجك خان خلالها أن يوضح للمسؤول الروسي (مديفاني) ما يجري على أيدي الانقلابيين من مآسٍ.

غير أن (مديفاني) كانت له أحكامه الخاصة، فحاول إثارة الغبار حول كثير من الحقائق؛ بل والتمادي بتوجيه اتهامات باطلة إلى كوجك خان هو بريء منها.

ومع كل هذا فقد نصح كوجك خان الطغمة التي تحكم گيلان أن يدَعوه وأنصاره في بقعة من الغابة، وأن يتوجهوا إلى أداء (رسالتهم) ومواجهة العدو الحقيقي ومراعاة أهالي گيلان المقهورين وعدم الإساءة إلى الناس البسطاء.

فُسّرت رسالة كوجك خان ودعوته بأنها هزيمة وتخاذل وضعف، وقد وصلت الأمور أنّ بعض قادة المجاميع المجاهدة لم يرتضوا هذا الأسلوب في معالجة طغيان الانقلابيين، وقرّروا المواجهة.

أمّا الطغمة الشيوعية، فقد فكّرت باجتياح الغابة والقضاء على قلب الثورة نهائياً، وعندها سيصفو الجوّ لهم.

وهكذا؛ تدفقت القوّات الانقلابية باتجاه المنطقة التي يتمركز فيها المجاهدون، ومن الطبيعي أن يخسر المجاهدون جولات في المعارك الطاحنة بسبب التفوق في نيران المدافع التي كانت تدك خنادق المجاهدين.

وبسبب سقوط الشهداء وبينهم رموز معروفة بالشجاعة والتديّن والإخلاص، أخذت الاشتباكات تأخذ إطاراً في الاستبسال والاندفاع نحو الشهادة؛ الأمر الذي قلب الحسابات العسكرية رأساً على عقب، فانتهت المعارك بانتصار ساحق للمجاهدين وهزيمة ذريعة للقوّات الانقلابية التي راحت تمعن في الانسحاب إلى ما وراء قرية «بسيخان».

لينين يصافح الإنكليز

خفتَ الصراع بين (الثوريين) الروس و(البرجوازية الإنكليزية)، وصدرت التعليمات الخاصّة بهذه السياسة الجديدة إلى ذيولها في إيران.

ومن المؤكد أنه لا يوجد في مبادئ روسيا اللينينية ما يبرر الخطوة الروسية الجديدة التي جاءت مفاجئة ومحيّرة.

وسوف يكشف قرار لينين بالتفاهم مع الإنكليز بدء النفاق السوفيتي الذي سيأخذ أشكالاً معقدة خاصّة في عهد ستالين؛ حيث أصبحت الشيوعية مجرّد شعار ووسيلة للقمع والتوسّع وقهر الشعوب.

وبدأت إشارات التفاهم الإنكليزي السوفيتي تظهر هنا وهناك.

فقد سافر وفد اقتصادي سوفيتي إلى لندن ليبحث قضايا السلام بين الطرفين، ومن المؤكد أن الوفد لم يبحث الجوانب الاقتصادية بقدر ما بحث الجوانب العالقة والمسائل المعقدة خاصّة في إيران؛ حيث يقف الفريقان وجهاً لوجه في گيلان ومازندران، وكان أول مؤشر على التفاهم هو لقاء[1] عملاء إنكليز واجتماعهم مع رضا خان ميرپنج قائد فوج القوزاق وإقناعه ـ بوسيلة المال والسلاح ـ بالهجوم على طهران واحتلالها، وفي منتصف ليلة ١٩ شباط ١٩٢٠، تحركت فرقة القوزاق المؤلفة من ٣٠٠ محارب واحتلت طهران.

وكان رضا خان قد التقى ضياء الدين مدير جريدة (الرعد) خارج طهران، والأخير معروف بعمالته للإنكليز والذي سخّر جريدته للدفاع عن المصالح البريطانية في إيـران[2]، وتزامن مع إعلان حكومة عسكرية توقيع اتفاق في

---

١. حصل اللقاء في قرية «آق بابا» في ضواحي قزوين.
ميراث ماندگار - ١٥.

٢. المصدر السابق.

موسكو بين إيران والاتحاد السوفيتي، وذلك في ٢٦ شباط [1]١٩٢١.

وقد تضمّن الاتفاق قطع المساعدات العسكرية للثوّار في إيران، وكما تضمّن الاتفاق إلغاء الاعتراف بالجمهورية الإيرانية التي أعلنها كوجك خان، واعتبار الثوّار مجرّد مجموعة من المتمرّدين والعصاة.

ولقد جاء الاتفاق ضربة قاصمة للشيوعيين خاصّة الإيرانيين.

ولهذا أقدمت باكو على إجراء مصالحة سريعة بين إحسان الله خان وكوجك خان بعد أن أعلن الأول عن ندمه العميق هو وخالوقربان ورغبتهما في الالتحاق بكوجك خان.

---

١. في ٢٦ شباط ١٩٢١، وقّع الجانبان الإيراني والسوفيتي أول اتفاقية بعد الثورة البلشفية في روسيا، وبموجب هذه الاتفاقية أعلن عن إلغاء اتفاقية «تركمن جاى» التي منحت روسيا القيصرية امتيازات واسعة.
وقد سبق توقيع الاتفاقية محادثات بين تشيتشرين الروسي ومعاونه كاراخان من جانب والسفير الإيراني علي قليخان (مشاور الممالك) من جانب آخر.
وفي ٢٣ آب صادقت اللجنة المركزية في الاتحاد السوفيتي على الاتفاقية، وفي تشرين الثاني صادق مجلس الشورى الإيراني عليها.
ألغت الاتفاقية جميع امتيازات روسيا القيصرية السابقة، واعتبرت سنة ١٨٨١ أساساً في رسم الحدود المشتركة بين البلدين، وبموجب الاتفاقية استعادت إيران جزيرة «اشفارده» وجزر صغيرة أخرى حولها، وكذلك قرية «فيروزه».
وجاءت الاتفاقية في ٢٦ فصلاً. منح الفصل ١١ فيها البلدين حرّية الملاحة في بحر الخزر، كما حدّد الفصل ١٦ حقوقاً متساوية لأتباع الدولتين ممن يقيمون على أرض جارتهم.
وقد حرّرت الاتفاقية باللغتين الروسية والفارسية، واعتبرت كل منهما نسخة أصلية معتمدة في تفسير أية مادّة.
كما حدد الفصل ٢٥ مدّة ثلاثة أشهر كسقف زمني أعلى للمصادقة عليها؛ حيث يتم تبادل النسختين في طهران.
مطالعات آسياي مركزى وقفقاز ٢ - ٢٦٩ ـ ٢٧٩.
مجموعة معاهدات دو جانبه دولت ايران ١٣٤٩هـ.ش - ١٩٧٠.

وفي هذه الخطوة، دفعت أذربيجان بـ «حيدر عمو أوغلي»[1] ليكون عضواً في القيادة الجديدة، فوصل ميناء أنزلي مع سفينة مشحونة بالسلاح.

وكانت فيما يبدو مؤامرة خطط لها الشيوعيون مرّة أخرى منتهزين حراجة الموقف في گيلان.

وبدا الموقف السوفيتي ازدواجياً، فموسكو تغازل لندن، وباكو تخطط لإسقاط الحكومة الإنكليزية في طهران.

---

١. من أهل سلماس، نشأ في القفقاز ودرس الهندسة الكهربائية في تفليس، التقى «مظفر الدين شاه» لدى عوده الأخير من أوربا عن طريق باكو، وعرض عليه إنشاء محطّة كهربائية في مشهد.
غادر مشهد إلى طهران بعد سنة ونصف، واشتغل في التجارة بين روسيا وإيران؛ ومارس عمله أيضاً كمهندس في طهران.
وقف إلى جانب حركة المشروطة، وكان له دور بارز في الأحداث. نفي بعد سقوط حكومة مشير الدولة إلى القفقاز، فغادرها إلى روسيا ومنها إلى فرنسا ثم ألمانيا.
وفي بداية الحرب العالمية الأولى، انضم إلى اللجنة الإيرانية التي يرأسها «تقي زاده» في برلين، وعملت اللجنة على مساعدته في السفر إلى إسطنبول.
خدم في تركيا مع القوّات العثمانية التي كانت تحارب روسيا القيصرية.
عاد إلى روسيا بعد اندلاع الثورة البلشفية، وانتمى لحزب العدالة في «باكو».
وبعد الانقلاب على ميرزا وما تلاه من مصالحة بين الانقلابيين وكوجك خان، ظهر حيدر عمو أوغلي على مسرح الأحداث في الغابة، بعد أن زجت به أذربيجان بتوصية من نريمانوف الرئيس الأذربيجاني، ويعدّ «عمو أوغلي» المسؤول الأول عما حصل من انشقاقات في حركة الغابة بعد أن كان يمارس نشاطه في نشر الأفكار الشيوعية سرّاً ثم علانية بدعم من السوفيت.
حاول كوجك خان القبض عليه ومحاكمته، ولكن الأحداث لم تمهل قائد الغابة؛ إذ لقي كوجك خان مصرعه في الثلوج.
وبعد انطفاء شعلة الثورة، خشي الذين كانوا يحتفظون بعمو أوغلي من تبعات ذلك، فأقدموا على تصفيته.
وقد انتقدت موسكو الحزب الشيوعي في أذربيجان على إرسالها أوغلي إلى إيرن، بعد توقيع المعاهدة السوفيتية الإيرانية.
حماسه ميرزا - ١٢٢.

وفيما كان السفير السوفيتي يقدّم تعهداً لحكومة طهران بتصفية المسألة الگيلانية، كان «حيدر عمو أوغلي» الشيوعي المنافق يخطط للإطاحة بكوجك خان والاتجاه بالثورة إلى متاهات الشيوعية الدولية[١].

ولقد أثارت نشاطات «حيدر عمو أوغلي» المشبوهة القلق في أوساط المؤيدين لثورة الغابة في طهران؛ خاصّة أعضاء «هيئت اتحاد إسلام» والشهيد حسن المدرس، الذين أبرقوا إلى الغابة:

«إن على «حيدر عمو أوغلي» أن يعمل وفق تعهده السابق[٢]، وأن يكون تابعاً لقرارات اللجنة بقيادة كوجك خان؛ وإلاّ فليأخذ طريقه إلى روسيا»[٣].

ولقد كانت محنة كوجك خان مع هذا الشيوعي قد وصلت ذروتها حتى لقد كتب حسن المدرس إلى كوجك خان أن يغادر الغابة ويعود إلى طهران إذا لم يوفّق في إعادة أوغلي إلى جادّة الصواب.

بل عزم بعض الزعماء الوطنيين التوجه إلى الغابة والاجتماع بالطرفين حول هذا الموضوع[٤].

---

١. سردار جنگل - ٣٦٧.

٢. ميراث ماندگار - ١٥١.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

الفصل الرابع: ١٩٢٠ ـ ١٩٢١

وفي الفترة التي كانت الإدارة الإنكليزية تصوغ (البطل التركي) في الحرب مع اليونان؛ كانت قد عثرت على ضالتها في إيران..»

مصرع ثورة

يبدو من خلال قراءة في تاريخ الثورة وأفكار كوجك خان أن قائد الثورة كان يؤمن بالإنسان.. الإنسان كفطرة وثورة.

من أجل هذا كانت فرص الامتحان لمن يريد أن يصوغ نفسه في ضوء المبادئ..

ولقد كان خالو قربان نكرة عندما التحق بصفوف الثوّار، ولكنه لم يلبث أن أصبح شخصية لها حسابها بعد أن أبدى شجاعة واستبسالاً في القتال، ثم أصبح فيما بعد على رأس القوّة الكردية التي كانت تقاتل ضمن كتائب المجاهدين.

ومن المؤسف أن الإنسان وبالرغم من إيمان ميرزا العظيم به يجنح ولا شك إلى وساوس كامنة في الأعماق، فينصرف إلى تعزيز مواقعه الذاتية التي تصطدم غالباً مع أهداف عليا.

ومن هنا؛ نرى قطار الثورة وهو يسير حثيثاً باتجاه هدفه، يتوقف في محطّات

عديدة يعالج فيها أزمة أولئك الذين لا يريدون للقطار أن يواصل طريقه المنشود.

ثم تأخذ المحنة شكلاً مأساوياً عندما يحاول البعض الانحراف بالقطار بعيداً عن محطته الأخيرة وغايته.

وهذه الحالة تنسحب على إحسان الله خان أيضاً الذي وسوست له نفسه احتلال طهران بعد أن رأى نفسه مبعداً عن اللجنة القيادية.

ولقد كان الإنكليز حاذقين في لعبتهم، فأرسلوا إلى «إحسان» من يوسوس له ذلك.

ومن دون أية مشورة، فرك الأخير يديه وهو لا يكاد يصدّق ما يسمع؛ أن هناك من سينضم إليه في الطريق إذا زحف بقوّاته على محور «تنكابن ـ طهران».

وما أسرع أن عبأ قواته التي بلغ تعدادها ثلاثة آلاف مقاتل، وكانوا خليطاً من الروس والإيرانيين.

وفي بداية الطريق، وجد نفسه في مصيدة من سوّل له ذلك، فقد انقضت عليه قوّات القوزاق في «ميل زغال»، وكتائب «ساعد الدولة» الذي شجعه قبل ذلك على فكرة احتلال طهران.

وقد وقعت هذه الحادثة في نيسان ١٩٢١؛ أي بعد التفاهم الروسي الإنكليزي والمعاهدة «الانكلوايرانية»؛ من هنا أبرق السفير السوفيتي «روتشتين» إلى الضباط الروس الذين رافقوا إحسان الله خان في عمليته أن يسحبوا أنفسهم من الصراع؛ ولهذا لم يقوموا إثر ذلك بأي جهد عسكري يذكر!

الاستقطاب.. محنة الإسلام المقاوم

وفي تلك الفترة العصيبة وفيما كانت الحوادث تعصف بعنف، ظهرت في الأفق غيوم كثيفة تشبه غيوم الخريف المتراكمة بعضها فوق بعض.

كانت الغابة تعيش حالة الاستقطاب بين الروس والإنكليز، وعندما تتحرك طموحات شخصية، ومنافع ذاتية في مقطع زمني من مسار الثورة، فإن الجوّ سيكون ملائماً لنمو النزاعات الفردية والمصلحية على حساب المبادئ، وأهداف الثورة العليا.

وقد فعل الاستقطاب الذي نهض على أُسس مصلحية فعله وفجرّ الوضع داخل الغابة، فانهارت خطوط دفاعية وذابت فجأة كما تذوب حبات الملح على الشاطئ.

وكان كوجك خان في تلك الفترة العصيبة يشعر بأن أيادي الإنجليز تتوغل لتعبث داخل الغابة ومن وراء ستار[1]..

حتى ستار الشيوعية التي كانت تتشدّق بمعاداة «البرجوازية الإنكليزية».

وقد دفع هذا الاستقطاب الذي حصل في ظروف مشبوهة قائد الغابة إلى التشكيك في الحركة الشيوعية خاصّة في الشمال الإيراني[2].

ونجد هذه الإشارة في رسالة له إلى أحد أصدقائه خارج إيران.

إن من الحوادث الهامّة التي ينبغي لمن يؤرخ للجغرافيا البشرية والتاريخ في القفقاز وما يجاورها، هو الانتباه إلى التفاهم السوفيتي الإنكليزي حول تصفية الاتجاه الإسلامي وقمعه بقسوة.

---

١. ورد هذا المعنى في رسالة لميرزا كوجك إلى شخص يدعى «يوسف ضياء بيك»، وقد جاء فيها:
«إن إصلاح الأوضاع الخطيرة يحتاج إلى يد غيبية.. ولقد قدّم أولئك (الانقلابيون) خدمات كبرى للإنكليز.. خدمات يعجز الإنكليز عن إنجازها بآلاف الجنود والمدافع.. من يدري فلعل أيادي الإنكليز ـ وأنت تعرفهم جيداً ـ تعمل معهم؟!»
سردار جنگل - ٣٠٩ ـ ٣١٢.

٢. المصدر السابق.

فبالرغم من الاتجاه الأممي للشيوعية؛ إلاّ أننا نرى القيادة في موسكو تقوم بتقسيم القفقاز على أساس قومي.

فجمهورية تركستان تتحول بقرار من ستالين سنة ١٩٢٤ إلى ست جمهوريات[١].

وكان الهدف الروسي من تمزيق آسيا الوسطى جاء إثر مخاوف من اتحاد إسلامي قد ينقل مركز الثقل من روسيا إلى القفقاز، وبالتالي سلْب القيادة من الروس[٢].

وهناك مؤشر حول الهواجس الروسية من الخطر الإسلامي، فقد مُنع أنور باشا القائد العام للجيوش العثمانية من إلقاء كلمته في مؤتمر الشرق في باكو سنة ١٩٢٠، لسبب واحد هو الخوف من تحوله إلى رمز إسلامي خاصّة في القفقاز التي تعيش فيها قوميات تركية واسعة.

وكان أنور باشا يسعى من أجل أن يبقى العلم الإسلامي التركي خفاقاً في القفقار حتى مصرعه سنة ١٩٢٢، واستمرت المقاومة في هذا الاتجاه حتى سنة ١٩٢٤[٣].

ومن هنا؛ فإننا نجد تفسيراً للغدر الروسي بحركة الغابة وطعنها من الخلف.

فأنور باشا لم يُمنح حتى فرصة التعبير عن أمّته المقهورة في تركيا في باكو، فيما يجد مصطفى كمال باشا (أتاتورك) الطريق ممهدة داخل تركيا نفسها؛ لأنه باع القفقاز بثمن بخس دراهم معدودة!

وليس من الصعب على الاستعمار الغربي أن يصنع أبطاله في تلك الفترة العاصفة عندما تحلم الشعوب برغيف من الخبز تأكله في لحظة آمنة.

وليست التجربة التونسية عنا ببعيدة، فعندما وجد الاستعمار الفرنسي أنه لم يعد له مكان في الأرض التونسية وكان أمامه خيار واحد هو تسليم الراية لأبناء

---

١. مطالعات آسياى مركزي وقفقاز ٢ - ٣٠.

٢. المصدر السابق ٢ - ٣٢.

٣. المصدر السابق.

تونس، قام باعتقال «بورقيبة» العلماني وترك أبناء ابن باديس (أحراراً)، ومعنى هذا أنه منح وسام البطولة لـ (بورقيبة) الذي تحول في ساعة إلى (بطل) تونس!!

ثم جاء (المجاهد) بورقيبة لينفذ برنامجه الحكومي الذي لم تكن الإدارة الفرنسية لتطمح في تطبيقه!

وفي الفترة التي كانت الإدارة الإنكليزية تصوغ (البطل) التركي في الحرب مع اليونان؛ كانت قد عثرت على ضالتها في إيران في شخص رضا خان؛ الذي لم يكن سوى ضابط صف ليتحول إلى قائد فرقة القوزاق، ثم يزحف بقوّاته إلى طهران، ويحتل العاصمة ويعلن حكومة عسكرية، في «مأمورية من أجل الوطن»[1]!! يكون هو وزيراً للحرب فيها ثم رئيساً للوزراء.

وفيما كان البطل يشق طريقه باتجاه زعامة إيـران، كان الشيوعيون من الصناعة الإنكليزية يحبطون مساعٍ لانتخاب كوجك خان رئيساً للجمهورية، ثم يحفرون قبوراً لدفن الأغنياء أحياءً أو يتنازلون عن أملاكهم[2]!

وفي غمرة هذا الاستلاب الذي يهدّد هويّة الثورة، جاءت خطوة كوجك خان في مغادرة رشت احتجاجاً على العبث المدعوم من السوفيت.

كان كوجك خان يعتقد بأن العبث الشيوعي مصدره باكو، وأن موسكو ترفع لواء الحرب ضد الإنكليز! وسوف تضرب على أيدي العابثين[3].

على أن كوجك خان كان قد حدد مدّة للانتظار وبعدها سوف يعمل بما يمليه عليه ضميره وواجبه الوطني[4].

---

١. اسم الكتاب الذي صدر باسم رضا خان!!

٢. سردار جنگل - ٣٣٣.

٣. سردار جنگل - ٣١٢.

٤. المصدر السابق.

وفي فترة الانتظار والترقب، كانت گيلان تتطلع إلى ابنها البارّ الذي شهدت في ظلاله حياة الحرّية والكرامة، فمن خلال بعض المقطوعات الشعرية التي يتغنى بها شباب گيلان نكتشف أن كوجك خان قد ولج ضمير الگيلانيين كإنسان ومبادئ.

«حتامَ تبقى في الغابة
تنام؟!
ألم تتعب بعد؟
أنت.. يا ميرزا كوجك خانا
الله وحده يعلم
إنني لم أذق نوماً
خشية العدو
قلبي فارغ
أنت!
يا ميرزا كوجك خانا
لماذا لا تهبّ إلينا؟
لا تخفّ إلينا؟!
تركتها وحيدة
گيلان.. گيلان المدمّرة
هلمّ إلينا.. يا روحنا
فداءً لك
لعينيك اللتين تشبهان البحر
نحن أبناء «رشت»
ننتظر أوامرك
نسكب مهجنا عند قدميك

أنت!

يا ميرزا كوجك خانا»[1]

وتكشف البرقيات السرّية المتبادلة بين السياسيين الروس عن أن التحرّك السوفيتي كان يجري من وراء ستار جمهورية أذربيجان.

وأن الذين كانوا يتحركون على هذا الصعيد مباشرة ليسوا إلاّ أدوات في أيدي الساسة الروس، الذين أقدموا فيما بعد وبأنفسهم على عقد الاتفاقية مع حكومة طهران[2].

وفي كل الأحوال؛ لم تطل مدّة الانتظار، وتسلّم كوجك خان رسالة أعرب فيها كل من إحسان الله خان وخالو قربان عن ندمهما العميق، ورغبتهما في العودة إلى أحضان الغابة، وتزامنت المصالحة مع محادثات أجراها ممثلون عن حكومة باكو الذين دفعوا بـ «حيدر عمو أوغلي» كثوري نشط كانت له مواقفه في الحركة الدستورية، إلى قلب المسرح السياسي.

وتكشف الرسالة التي بعث بها كوجك خان إلى رفيقه عن أفكار ومبادئ الثائر وموقفه من أخطاء رفاقه في الجهاد[3].

وفي رسالته يكشف كوجك خان عن مواقفه الصريحة في علاقته بالسوفيت،

---

١. والنص باللغة المحلّية في إقليم گيلان (الگليكية):
چقد جنگل خوسى.. ملت واسى.. خستنابوستى مى جان جاننا.. تراگوما ميرزا كوجك خانا.
خدادانه كه من.. نتانم خفتن.. از ترس دشمن مى ديل آو يزانا.. تراگو ما ميرزا كوچك خانا.
چيره زودتر نائى ـ تندتر نائى ـ تنها بنائى گيلان ويرانا تراگوما ميرزا كوچك خانا.
بيا اى روح روان ـ تى ريشا قربان ـ بهم نوانان تى كاس چومانا تراگوما ميرزا كوچك خانا.
أما رشت جغلان ـ ايسيم تى فرمان ـ كنيم امه جان تى پاجير قربانا تراگوما ميرزا كوچك خانا.
وقد لُحّن ليكون بداية لمسلسل تلفزيوني تحت عنوان «كوجك جنگلي».

٢. سردار جنگل - ٢٦٠.

٣. المصدر السابق - ٣١٩.

هذه العلاقة التي حدّد لها إطاراً رسمياً يُلزم السوفيت بتقديم المساعدات العسكرية إذا لزم الأمر دون التدخل في الشؤون الداخلية[١].

التعهد السوفيتي.. شعارات ثورية تحت الأقدام

وفي مراسم تتويج أحمد شاه في آيار ١٩٢١، كان السفير السوفيتي يخاطب شاه القاجار الأخير قائلاً «أؤكد لجلالتكم بأن حكومتي ستعمل برغبة أكيدة على تصفية المسألة الگيلانية»[٢]. كان الروس يفكرون بإجراء يضمن لهم حلّ المشكلة بطريقة لا تؤثر على سمعتهم كحاملين لراية الثورية ومناهضة الاستعمار.

ولذا؛ فكروا في الاجتماع بكوجك خان وإطلاعه على معلومات سرّية للغاية بشأن مستقبل العلاقات بين إيران والسوفيت؛ وكان الحل الأمثل في رأيهم إقناع قائد الغابة بإنهاء الثورة، ولعلّ خلاصة الرسالة الموجهة إلى كوجك خان تنطوي في هذه العبارة: «إن إيران لا تحتاج إلى ثورة» «اذهب إلى زاوية من زوايا الغابة وانتظر.. فلعل الشعب الإيراني يستدعيك لنصرته»[٣]، «وأن الثورة في الوقت الحاضر ستلحق الضرر باقتصاد واستقلال إيران»!!

وقد أكدت رسالة السفير السوفيتي أن وزير الحرب (رضا خان) يلحّ في تصفية الثورة بقوّة السلاح[٤].

وكان السفير السوفيتي قد أبرق إلى قائد القوات السوفيتية في گيلان «كيغالو» لينوبه في المحادثات مع كوجك خان، والاجتماع به على انفراد.

---

١. المصدر السابق - ٣٢٣.

٢. المصدر السابق - ٣٥٣.

٣. ميراث ماندگار - ١٥٠.

٤. سردار جنگل - ٣٥٩.

وفي الاجتماع الذي تم بين قائد الغابة والقائد الروسي، كشف الأخير عن بعض الأسرار وأن الثورة سوف تواجه منعطفاً خطيراً في المستقبل القريب[1].

موقف كوجك خان

إن ما يحزّ في النفس هو ثقة كوجك خان بقادة الثورة البلشفية، ومن المؤكد أن جزءاً كبيراً من هذه الثقة مردّه إلى طبيعته كثائر وإنسان وصاحب مبدأ.

فلم يكن ليتصور أن تباع مبادئ ثورة كبرى بهذه السرعة أو تكون ثورة كهذه خاوية من المبادئ منذ البداية.

لقد وصف كوجك خان شيوعيي أذربيجان بالمنافقين واعتبرهم خطراً يهدّد مسيرة جهاده؛ ولكنه لم يتعامل مع قادة موسكو بهذه الرؤية.

ومن المؤسف أن الطعنة قد جاءت من حيث لم يحتسب.

ففي رسالته الجوابية، نرى كوجك خان يتأثر بآراء السفير السوفيتي فيما يخص مستقبل إيران وحركة الغابة في ضوء المعطيات العالمية والظروف الجديدة التي تمرّ بالمنطقة.

ومن المؤكد أن السفير السوفيتي عرف كيف يمسّ الوتر الحساس في شخصية كوجك خان.

فشخصية الثائر الذي نذر نفسه من أجل إيران حرّة مستقلة وتحيا حياة كريمة، مستعدة للإصغاء في هذا المضمار.

وفي ردّه على رسالة السفير، يقول قائد الغابة: إنه سيتجرّع غصص السكوت والانزواء في الغابة إذا كانت الثورة تشكل خطراً على استقلال إيران السياسي والاقتصادي ووحدتها أو تكون ذريعة للإنكليز في تعزيز نفوذهم.

---

١. المصدر السابق - ٣٥٥.

وإنني سأراقب عن كثب حكومة إيران للوفاء بواجبها إزاء استقلال إيران والدفاع عنها، وسأرصد أيضاً مدى مساعدة الحكومة السوفيتية في إطار أفكارها التحررية لشعب إيران، «وكذا آثار تعهداتكم المحرّرة في الحياة الاقتصادية في البلاد».

«وأوكد لكم قناعتي إلى حدّ ما بآرائكم، وآمل ألّا تستغل الحكومة الإيرانية هذا السكوت، وأن تصنع لأهدافها في الإصلاح وجوداً خارجياً»[1].

وأخيراً أؤكد بأن هدفي وهدف أنصاري هو صيانة استقلال البلاد، وإصلاح الحكم، وأن انفصال گيلان الذي سيكون مقدمة لملوك الطوائف[2] هو تضعيف للدولة وخيانة صريحة»[3].

خريف الثورة

كانت الأحداث تضع المجاهدين والثوّار على محك رهيب، وكانت معادن الرجال تنكشف في غمرة اللهب؛ حيث إن بوتقة الحوادث والأيام تميز الخبيث عن الطيب.

لقد اتحدت الثورة في روح كوچك خان، وأصبح صدره خندقاً لقلبها النابض، وإن مصير الثورة في ذلك الخريف من سنة ١٩٢١ مرهون بموقف كوچك خان.

ستركع الثورة إذا ركع، وستستسلم إذا ألقى سلاحه جانباً.. ولكن هيهات!.

لقد اكتشف الجميع أن كوچك خان ليس من ذلك الطراز من الرجال، حتى حاجي أحمد، الذي خانه في منتصف الطريق، كان يدندن بأشعار شعبيه قائلاً:

«إنني رحى وتراب گيلان مثل بيادر قمح.

---

١. المصدر السابق.

٢. كانت إيران تعيش هذه الحالة قبل العهد الصفوي؛ حيث تنهض هنا وهناك حكومات متفرّقة.

٣. سردار جنگل - ٣٦٢.

لسوف أطحنها.. ولكن الشخص الوحيد الذي لا تؤثر فيه أسناني هو ميرزا كوجك خان»[1].

قرار الحسم

كانت المؤامرات تحاك في غمرة الـظلام.. الظلام الذي نشر ستائره من طهران إلى أنزلي.. لكأن ثورة البلاشفة قد أيقظت في أعماق البشر كل الغرائز المجنونة.. فضاعت روح الإنسان..

كان كوجك خان يعيش حالة حزن عميق بسبب تردّي الأوضاع وانغماس كثير ممن التقاهم ـ خلال درب الجهاد ـ في حمأة التآمر من أجل حطام دنيوي زائل.

وشهد صيف سنة ١٩٢١ تصدّع آخر لجنة لقيادة الثورة، فقد ظهرت في الأفق كل الأشياء والاتجاهات التي أريد لها أن تبقى دفينة.

وفي ظروف غامضة، وردت برقية من روسيا تفيد بإلقاء القبض على «عمو أوغلي» وإعادته إلى روسيا!!

وكان مسار الأحداث قد فجّر في أعماق الأخير حالة من اليأس عنيفة.

وبدأت الخلافات تظهر بين أكبر شخصيتين في اللجنة القيادية بين كوجك خان وحيدر عمو أوغلي.. وكانت أهداف الأخير جرّ مسار الثورة إلى دوامّة العنف الأحمر، فراح يخطط لإزاحة كوجك خان عن طريقه.

ومن الطبيعي أن يجد عمو أوغلي في خصوم ميرزا داخل الغابة آذاناً صاغية وخيلاً ورجالاً..

وفي غضون فترة وجيزة، ظهر تكتل يناصر عمو أوغلي راح يتحدث علناً ضد كوجك خان..

---

١. المصدر السابق - ١٩٩.

ولم يكن أولئك الذين وقفوا إلى جانب أوغلي سوى رموز تبحث عن المجد المادّي.. والمنافع الشخصية.

لقد كان طريق كوجك خان هو الطريق الصعب.. طريق الاستقامة المرير الذي يعني التضحية والفداء والبذل حتى النهاية.

ولم يكن هناك في تلك الفترة على الأقل مَن يمكنه مواصلة طريق الجوع والسهر والقتال المستمر بين أشجار غابة تغسلها الأمطار ليل نهار.

وأدلت الحكومة برئاسة عميل الإنكليز «سيد ضياء الدين الطباطبائي» بدلوها، فراحت تصطاد في المياه العكرة[1].

وظهر «حاجي أحمد كسمائي» الذي هزّ استسلامه أرجاء الغابة في فترة سابقة.. ظهر مرة أخرى في مأمورية سجّلت المدى الرهيب الذي قد يصل إليه المرء في الخيانة والتآمر..

وكانت مأمورية الأخير تصفية كوجك خان بتأليب جميع أعدائه، وهكذا جرّد أسلحته بما في ذلك السلاح الخفي «المال» الذي لم يعد يصمد في وجهه سوى القليل في تلك الأيام العاصفة.

كان حضور حاجي أحمد مع ستين من أفراده المسلحين قد أثار قلق القائد السوفيتي «كيغالو» الذي أصدر أمراً بإلقاء القبض عليه وعلى رجاله.

وكشفت الحادثة عن حجم المؤامرة، فاذا بإحسان الله خان يزور حاجي أحمد بالرغم من العداء الشخصي الذي يكنّه له.

وكان ميرزا يشعر بالألم يعتصر قلبه جرّاء الممارسات التي يقوم بها «أوغلي» والتي تنذر بوقوع الكارثة والتي يشم فيها رائحة التآمر.

---

١. نهضت جنگل «الوثائق والتقارير السرّية» - المقدمة ٢٧.

وفي اجتماع ضم كوجك خان و«عبد الحسين خان ثقفي» القائد الميداني وغافك الألماني وبعض الزعامات، اتُّخذ أخطر قرار مصيري؛ وهو إلقاء القبض على زعماء الخط الشيوعي بقيادة أوغلي ومحاكمتهم بتهمة التآمر وخيانة الميثاق الذي تم القسم على الوفاء له في آب ١٩٢١.

حادثة ٢٦ محرّم ١٣٤٠ هـ

إنّ ما أسفر عنه الاجتماع يمكن اعتباره عودة إلى الذات.. إلى الجذور الحقيقية التي نهضت عليها حركة الغابة، أو حركة تصحيحية لإزالة ما علق من غبار في وجه الثورة الحقيقي.. لقد وصلت الأمور فيما يبدو إلى «النقطة الحرجة»؛ حيث يعني السكوت بعدها تغاضياً عن المؤامرة وإفساحاً للمجال أمام الانتهازين في السطو على الثورة.

اعتاد أعضاء لجنة القيادة الاجتماع أسبوعياً في «ملاّ سرا» قريباً من مدينة رشت.

وهكذا تقرر إلقاء القبض على خالو قربان الزعيم الكردي وحيدر عمو أوغلي، وهما زعيما الجبهة المعادية لكوجك خان.

وقد ارتكب الذين أنيطت بهم مهمة تنفيذ الاعتقال خطأ فادحاً، بإطلاق الرصاص على البناية التي كانت مقرّاً للاجتماعات الأسبوعية.

بدأ إطلاق الرصاص من على بعد ٤٠ متراً أو أكثر، ولا يوجد تفسير منطقي لهذه الخطوة.

ومن المؤكد أن طريقة أيسر بكثير من ذلك يمكن تنفيذ أمر الاعتقال بها.

على أن المرء يمكنه أن يستشف نوعاً من الفروسية في منح الطرف الآخر فرصة الدفاع عن النفس في موقع حصين.

كان المهاجمون يتقدمون باتجاه بناية ملا سرا، وكان أزيز الرصاص وأصوات

انفجار القنابل اليدوية تملأ الفضاء، وقد اشترك ثلاثة من زعماء الحركة في عملية الهجوم؛ وهم: غافك الألماني، وإسماعيل جنگلي، ومعين الرعايا[1].

وسقط عديد من القتلى والجرحى، ولكن العملية اعتبرت فاشلة وأسفرت عن نتائج خطيرة عصفت بالغابة بعد حين.

لم يسفر الهجوم عن إلقاء القبض على أيٍّ من الزعيمين، فقد تمكن خالو قربان بما يتمتع به من لياقة حربية من إلقاء نفسه من فوق البناية والتواري داخل الغابة ثلاثة أيام، ريثما تخفّ عمليات البحث؛ فيما تمكن أوغلي من الفرار أيضاً؛ حيث تمكن من عبور النهر ليُلقى القبض عليه في «بسيخان» في الغرب من مدينة رشت، فأرسل مخفوراً إلى قرية «كسما» ريثما تسنح الفرصة لمحاكمته.

الانفجار الأخير.. شظايا الانطفاء

في حزيران، سقطت حكومة سيد ضياء الدين[2] لتأتي حكومة ألعوبة هي في الحقيقة غطاء لحكم عسكري مطلق يديره الإنكليز عبر بطلهم «البطل القومي» رضا خان.

فلم تكن حكومة قوام السلطنة[3] ـ وهو أخ لوثوق الدولة ـ سوى واجهة شكلية لتمرير المؤامرات البريطانية.

---

١. سردار جنگل - ٣٦٨.

٢. عيّن سيد ضياء بعد تسنمه رئاسة الوزراء رضا خان وزيراً للحرب، وكان يتصور أن الأخير سيكتفي بهذا المنصب، ولم يدُر في خلده أن الدوائر الإنكليزية كانت تمهد له الطريق إلى ما هو أبعد من ذلك: رئاسة الوزراء أو رئاسة الجمهورية على غرار ما يجري في تركيا.
ومن المعروف أن رضا خان تقدّم أثناء تولّيه رئاسة الحكومة إلى مجلس الشورى بمشروع الجمهورية! ولكن أحبط بعد تصدّي الشهيد حسن المدرس لعلمه بعلاقته المشبوهة بالإنكليز.

٣. لم يكن قوام السلطنة سوى ألعوبة بأيدي الإنكليز ريثما يتم التخلص من كوجك خان والقضاء على ثورة الغابة؛ إذ لم يلبث سوى شهر واحد تقريباً بعد مصرع الأخير.

عندما وقعت حادثة ملاّ سرا، كان الحاكم الفعلي «رضا خان» وزير الحرب الذي أخذ على عاتقه تصفية المسألة الگيلانية بقوّة السلاح وكان يلحّ في بدء الهجوم[1].

كشف المنافقون عن وجوههم الكريهة، وكانت أول ضربة تلقتها الغابة تمثلت بهجوم التكتل الكردي بقيادة خالو قربان الذي تمكن من الوصول إلى رشت وإعداد جنوده لهجوم شارك الروس فيه.

وفي تلك الفترة بدا أن أحد قادة المجاميع وهو «سيد جلال چمني»[2] يخطط لتفجير أزمة مع كوچك خان ليتخذها ذريعة في التزلّف إلى الحكومة.

وقد كشفت الظروف عن جانب «المرتزق» في شخصيته؛ إذ أصبح يهدد الخطوط الخلفية للمجاهدين بعد أن تسلّم أموالاً من طهران.

اشتعلت حرب الأيام السبعة بهجوم الأكراد والروس على مجاهدي الثورة، غير أن هجوماً كاسحاً قام به المجاهدون في النهاية تمكن من الوصول إلى رشت وطرد الأكراد منها.

وفي هذه الفترة استلم الروس إشارات الانسحاب من ميدان الصراع.

فاتجه خالو قربان إلى رضا خان الذي اشتهر آنذاك بلقب «سردار سبه» ليلقي أمامه بسلاحه الشخصي معلناً استسلامه الخانع.

ولكن رضا خان الذي أنيطت به مأمورية القضاء على الثورة يعيد إليه سلاحه ويمنحه رتبة عقيد ويزجّه مع أفراده في القتال إلى جانب القوّات الحكومية[3].

---

١. تضمنت رسانة السفير الروسي إلى كوچك خان إشارة تؤكد إلحاح رضا خان بتصفية المسألة الگيلانية بالعنف.

٢. أحد الذين غدروا بكوچك خان وخانوا الميثاق. منحته الحكومة الأمان ثم ألقي القبض عليه مع رفاقه بعد دخوله حماماً عامّاً، وسيقوا عراة إلى ساحات الإعدام.

٣. لقي الزعيم الكردي حتفه على يد أحد رفاقه، وكان مستاءً من خيانة خالو قربان، فأطلق عليه النار في أذربيجان الإيرانية - سردار جنگل - ٣٧٥.

مفاوضات مع وزير الحرب

وصلت المعارك أخطر مراحلها بعد استلام القوّات الحكومية الجبهة من الأكراد الذين أصبحوا في لحظة جزءاً من القوّات الحكومية.

وأعقب ذلك إعلان سيد جلال تمرّده على قيادة كوجك خان، وأصبح يهدد الخطوط الخلفية بصورة جادّة، فاضطر المجاهدون إلى الانسحاب إلى نقاط آمنة.

أرسلت الغابة ممثليها إلى طهران للتفاوض مع رئيس الـوزراء «قوام السلطنة» الذي صرّح قائلاً: إنني لا أملك صلاحية في مسألة الحرب في الشمال.. وإنه يجب التحدث مع «سردار سبه» شخصياً[1].

وفيما كان ممثلو الغابة ينتظرون عودة وزير الحرب إلى طهران، كانت الحوادث تجري سريعاً في الشمال؛ إذ قرر المجاهدون إرسال من يفاوض عنهم إلى رشت والاطلاع على موقف «سردار سبه»[2].

وقد أوكلت مهمة التفاوض إلى شخصيتين[3] من رموز الحركة الثورية اللذين توجها إلى رشت للقاء وزير الحرب رضا خان، وقد واجه المفاوِضان عاصفة كلامية عنيفة عندما راح الضباط يكيلون التُّهم إلى حركة الغابة.

وعندما هدأت العاصفة، بدأ ممثلا الغابة تفنيد الافتراءات الموجّهة إلى الحركة.

كان رضا خان يصغي، ثم تدخل قائلاً: إذا لم يكن لهذه التهم أساس، فمن أين تموّلون أنفسكم؟

أجاب المفاوض: إن الحركة أنشأت إدارة ذاتية في الإقليم وهي تعتمد على الضرائب.

---

١. «سردار سبه»: قائد الجيش أو زعيم.

٢. سردار جنگل - ٣٧٦.

٣. المصدر السابق - ٣٧٧.

وبعد حوار قصير تغيّرت لهجة الوزير الذي صرّح أن كل ما قام به كوجك خان هو خدمة للبلاد، وإنني أعلن ذلك باسم الحكومة.

ثم أردف قائلاً إن هدفه ينسجم مع هدف كوجك خان، وأنه قد ثار في طهران وحقق ما يصبو إليه الثوّار في الغابة.

«لقد حققت قسماً من غايات كوجك خان وسأحقق القسم الآخر»[1].

وفي خطوة ذكية أمر وزير الحرب بإصدار بيان حكومي بهذا المعنى.

ويلتفت وزير الحرب إلى المفاوضين سائلاً عن عمر كوجك خان؟

- ٤٥ سنة.

يلتفت إلى الكاتب.

- اكتب: أطلب منكم الحضور لنشد أيدينا على بعضها من أجل إنقاذ إيران.

وقد أسفر الحوار بين وزير الحرب وحركة الغابة فيما بعد عن اتفاق مبدأي حول هدنة لمدّة ٤٨ ساعة.

ويبدو من خلال سياق الحوادث أن رضا خان كان يحاول الترويج لإشاعة حول مصالحة حركة الغابة مع الحكومة، سيما وأن مسلسل التسليم سيعزز هذه الشائعة، ولسوف تفعل هذه الوسيلة فعلها في دفع المجاهدين إلى حالة من التداعي والانهيار، ولم تكن الهدنة سوى عملية تضليل.

على أن هذا المقطع التاريخي يكتنفه الغموض، ولا يعرف بالضبط ما إذا كان الطرفان جادّين في مسألة التفاوض وحلّ المشكلة سلمياً أم لا؟!

هل أرادت حركة الغابة تضليل رضا خان[2]؟ أم أن رضا خان كان يلعب دوره

---

١. المصدر السابق.

٢. حماسه ميرزا - ١٣٤.

في تفتيت روح المقاومة ودفع مجاميع أخرى للاستسلام.

غير أن مواقف كوجك خان لا تؤيد الرأي الأول، فطبيعته ومبادئه ومواقفه خلال مسار الثورة ونفوره من الحرب الأهلية واقتتال الإخوة، تؤيد موقف الغابة في الخروج من المأزق بحلّ مشرّف يحفظ كرامة الثورة، ويوفر للمجاهدين بقعة صغيرة يعيشون فيها بسلام.

وما يؤيد هذا الرأي مواقف سابقة كان كوجك خان يتجنب فيها الاصطدام بالإخوة أبناء الوطن، ولعل موقفه في معاملة أسرى القوزاق كافية للاستدلال على ذلك.

لقد رفع كوجك خان راية الجهاد ضد أعداء الإسلام؛ ولهذا نرى مسلمي القفقاز ينضمون إلى جانبه، ونرى أيضاً بعض جنود بريطانيا من مسلمي الهند(١) يفرون من معسكراتهم ويلتحقون بالغابة؛ لأن زعيماً مسلماً يقاتل من أجل الإسلام.

وحتى لا تنهار خطوط المقاومة بفعل شائعات ووعود حكومية غير مؤكدة[٢]، عمّم كوجك خان رسالة إلى قادة المجاميع الجهادية في مواقعهم الدفاعية، وهي توصي الجميع ألّا يغادروا خنادقهم بسبب مفاوضات لا تُعرف نتائجها، وأن يبقوا على أهبة الاستعداد تحسباً للطوارئ[٣].

وقد وقعت نسخة من الرسائل في يد رضا خان بتاريخ ٢ تشرين ١٩٢١ أثارت أعصابه؛ لأنها تتضمن خطة عسكرية للالتفاف على خطوط القوزاق إذا لم تسفر

---

١. سلّمت مجموعة من الجنود الهنود نفسها بعد الهجوم العام الذي شنّته القوّات الحكومية، فاعتقل أفرادها وسيقوا مخفورين إلى بغداد؛ حيث تم شنقهم هناك - سردار جنگل - ٣٨٢.

٢. لم يكن كوجك خان ليثق بالوعود الحكومية، وقد نصح رفاقه في الجهاد بألّا يصغوا أبداً إلى وساوس عملاء الإنجليز، ويكفي المصير المؤسف الذي واجهه الدكتور حشمت على زيف وخداع حكومات طهران في ظل النفوذ الإنكليزي.

٣. سردار جنگل - ٣٨٠ ـ ٣٨١.

المفاوضات عن حل مشرّف.

وقد وضع الهجوم العام حدّاً للمراسلات بين حركة الغابة ووزير الحرب، كما قضت على آمال التوصل إلى حلّ سلمي يجنّب الغابات نزف الدم والاقتتال بين الإخوة.

الخريف.. فصل الرحيل

رياح الخريف تعصف خلال الغابات، وتبشر بشتاء قارس وبرد طويل، وكانت أشجار «آزاد» و«توسكا» تميد لكأنها تهتز لعنف المعارك.

وكانت خطّة كوجك خان في ضوء حالة التداعي ألّا يزجّ بما تبقى من أنصاره في حرب خاسرة؛ ولهذا كانت خطّة الانسحاب باتجاه الجبال وإخفاء السلاح في أماكن سرّية وضعت موضع التنفيذ، وكانت مجاميع المجاهدين تختفي هنا وهناك.. في فصل يثير لواعج الحزن في قلوب كسيرة.

ويبدو أن ميرزا كوجك خان يعتبر الأرض والإنسان والسلاح شروطاً في إشعال الثورة واستمرارها، فإذا حدث وانعدم بعد الأرض، فإن مسار الثورة سيتعثر ولا شك؛ ذلك أن الأرض بُعدٌ حياتيّ في الثورة، غير أن الثورة لن تختنق مادام هناك ثائر يتنفس، وتبقى الثورة كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالإنسان، ومن الممكن خمودها، ولكن تبقى جذوتها متوهجة ولو تحت الرماد، كصاعق يعيد تركيب عناصر الثورة من جديد ويعدّها للحظة الانفجار في ساعة الصفر.

إن كوجك خان وهو يخزّن السلاح في مخابئ سرّية ويغادر إقليم گيلان باتجاه خلخال، لابدّ وأنه كان ينظر إلى المدى البعيد عندما تكتشف الأمة زيف الادعاءات وتنكشف أقنعة النفاق، وعندها يتدفق الثوّار صوب الغابة لحمل السلاح، عندها تأزف اللحظة الموعودة.

رسالة للتاريخ.. والأجيال

كان ميرزا كوجك خان يبحث عمّن يوجّه باسمه رسالة للتاريخ والمستقبل؛ ذلك أنه كتب هذه الرسالة إلى شخص يكاد يكون مجهولاً أو على الأقل غير معروف؛ إذ لم يرد له ذكر في أثرى مصدر أرّخ لحركة الغابة.

والرسالة التي يعود تاريخ كتابتها إلى ٢٨ تشرين الأول ١٩٢١ هي آخر ما كتبه كوجك خان.

كلمات تطفح بالألم والحسرة، وفيها شكوى من أولئك الذين لا يعرفون قدر هذه الثورة التي لا تنشد سوى الخلاص للشعب والحرّية للوطن المقهور[١].

وفي تلك الفترة العاصفة من تاريخ الثورة، كانت الآفاق تبدو مظلمة، الرياح تعصف بعنف وقد بدأت الثلوج تنهمر في مرتفعات «گيلوان»[٢].

قوّات المجاهدين تتمزّق بسبب الجوع والسهر وعنف المطاردة، وينصح كوجك خان رفاقه بالتفرّق[٣]؛ لأن المطارِدين لا يهمهم سوى القبض عليه، إنه قلب الثورة النابض بالحياة، فإذا ظفروا به ذهلوا عن طلب غيره، وتعيد كلماته إلى الأذهان ما ورثته الذاكرة الشيعية من مواقف عاشوراء عندما عرض الحسين على رفاقه فكرة مغادرة كربلاء بعد أن جعلهم في حلٍّ من بيعته؛ لأن المطلوب قهر الحسين ليس غير[٤].

---

١. المصدر السابق - ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

٢. منطقة جبلية بين ماسولة على حدود گيلان و«خلخال».

٣. أصدقائي! إن الحكومة لا تنشد سوى القبض عليّ.. ولذا؛ فأنا لا أودّ أن يلحقكم ضرر بسببي.. إنني أسمح لكم بالتفرّق والذهاب أينما تشاؤون. حماسه ميرزا - ٧٨.

٤. قال سيدنا الحسين عليه السلام لأصحابه عشية عاشوراء:
«ألا وإني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مني ذمام.. وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا في سوادكم، ومدائنكم، فإن القوم إنما

اللقاء الأخير

وفي آخر لقاء له مع زوجته، اختارت الطبيعة خلفية مؤثرة؛ فالفصل خريف، ورياح باردة تجوس الغابات وتشتت أوراقاً صفراء كانت ذات يوم زاهية الخضرة، وقد غادرت طيور الربيع ليحلّ مكانها نعيب الغربان وهو ينذر بالفراق والرحيل.

كان اللقاء مؤثراً تجمعت فيه الدموع في العيون كغيوم ممطرة.

وفي ذلك اللقاء أيقن كوجك خان أنه سيكون الأخير؛ عرض كوجك خان الطلاق على زوجته حتى لا تربط مصيرها برجل محكوم بالموت سوف يقضي حياته القادمة مشرّداً في المغاور والجبال والغابات.

كانت زوجته الشابّة والتي تزوجها حديثاً فيما يبدو ترفض بصمت ودموع موقف زوجها النبيل.

«ما تزالين في ريعان شبابك.. إنني لا أريد أن تكوني عرضة للأخطار.. وأنت لم تقطفي زهرة واحدة من مرج الحياة.. والطلاق «حلّال المشكلات»، وسوف يمكنك بعد ذلك أن تبدئي حياة جديدة».

ـ «إنني ارفض ذلك.. لا أريد أن أكون غادرة.. لسوف يمقتني الناس.. إنني ما زلت أفتخر بك وأراك على قمم المجد.. إذا بقيت حيّاً فسوف أحمد الله، وإن اختارك إلى جواره، فقد وقع الطلاق الإلهي، ومع هذا فلن أتزوج بعدك أبداً»[1].

يطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري». تاريخ الطبري ٦ - ٢٣٨.

١. سردار جنگل - ٣٨٤ ـ ٣٨٦.

وفي اللقاء الأخير قال ميرزا لزوجته:

الخطر يحدق بنا من كل صوب، إننا نقف في مهبّ عاصفه من الحوادث.. المستقبل مبهم ومظلم، ومن المحتمل أن يكون أكثر ظلاماً.. وليس لك ذنب إلا أنك زوجتي..

ليس من اللائق أن تبقي هكذا معلّقة.. أو لا سمح الله تتعرضين للخطر..

أنت ما تزالين في أول الشباب.. ولم تقتطفي بعدُ زهرة من حديقة الحياة..

في الوقت الذي يكون «الطلاق» حلّال كل هذه المشكلات، ويمكنك بعد ذلك وبحكم

الطريق الصعب

كانت الرياح تعصف بعنف، فتثير الثلوج في القمم والسفوح، وتلفح الوجوه،

الشرع والعرف أن تبدئي حياة جديدة.

وتجيب زوجته:

إنني لا أقبل اقتراحك هذا.. لا أريد أن يتهمني الناس بالغدر وعدم الوفاء.. لسوف يمقتني الناس.. لسوف يقولون لقد كانت منسجمة مع زوجها أيام الرخاء، فلمّا انقلب الزمان على زوجها أظهرت له نشوزاً.

ربما يوجد من بين النساء غادرات، ولكن الأكثرية يقفن إلى جانب المضحين الذين ينشدون الحق..

إنني لا آسى على شيء مما مضى، راضية بما سيجري عليّ في المستقبل.. ذلك أنني متوكلة على الله العادل الرؤوف، راضية بمشيئته.

لقد نشأتُ في ظلّ حياة بسيطة كريمة مقرونة بالفقر والقناعة، لا أعرف الرياء والزيف، معتقدة بأن الله ربي وهو منبع حبّي وبهجتي، معتقده أن أعظم لذّة في الوجود هي راحة الروح وهدوء الضمير..

إذا بقيتَ حيّاً، فإنني أحمد الله الذي سيبعث في كياني روحاً جديدة، وإن توفّاك إلى رحمته، فقد وقع الطلاق الإلهي. وفي كل الأحوال؛ سيكون من المستحيل أن أقترن بزوج بعدك، وتأكد أنني سأبقى وفية لك حتى آخر لحظة في حياتي.

ولقد هزّ الموقف كوجك خان بشدّة وظهر عليه التأثر قائلاً:

ينبغي أن يتعلّم المرء دروس الأدب والإنسانية من أمثالك.. ذلك أن روحك وقلبك يتدفقان بحقائق الحياة.. وقلّما رأيت امرأة في مثل سلامة نفسك وإدراكك.. ومع أنك ابنة فلاح، ولكن منطقك ينطوي على حقائق عظيمة..

إنني أشعر بالخجل لأنني لم أوفر لك حياة تليق بشأنك.. وإنني أشكرك على وقوفك كالجبل في مثل هذه الظروف والشدائد.

وإنك أول من سينصفني ويبرّئني من كل التهم الباطلة خاصّة وأنت لا تملكين ذخيرة لمستقبلك المبهم الغامض.. إنني راضٍ عنك؛ لأنك لم توجّهي أبداً لوماً، ولم تؤاخذيني على أنني لا أملك شيئاً.. وإنني أدعو الله أن يرضى عنك..

أقدّم إليك الشيء الوحيد الذي أملكه.. هذه الساعة الذهبية هدية أنور باشا.. إنني أهبها لك ليذكّرك جرسها كلما دق بحياتنا المشتركة.. بزوجك المعذّب..

ثم ودّع زوجته.. وكانت الدموع تموج في عينيه كسماء ممطرة.

كانوا ثلاثة يشقون طريقهم بصعوبة وسط الثلوج: كوجك خان، غافك (هوشنگ)، حسن خان المعروف بـ «معين الرعايا». نظر كوجك خان إلى مرتفعات «گيلوان»؛ الطقس ينذر بـ «بوران»[1] عنيفة وقد ضاعت معالم الطريق.

كل شيء يغمره الثلج؛ ولكن حسن خان خبير بمنعطفات الطريق الوعرة، سوف يسلك بهم طريقاً آمنة بعيدة عن هجمات القوزاق، وتؤدي بهم إلى خلخال.

انقطع أزيز الرصاص، وهدأت المدافع، وتشتت قوّات المجاهدين، وقد ألقي القبض على القائد الميداني العام[2].

وبالرغم من عنف العاصفة وغزارة الثلوج، فقد بدت الطبيعة أكثر رحمة من أولئك الذئاب، إن غضب الطبيعة لم يكن إلاّ لحماية المطارَدين.

كان القوزاق يبذلون المستحيل في القبض على المطارَدين، ويشاء القدر أن يتقدم أحدهم إلى وزير الحرب «رضا خان» عارضاً عليه منح الأمان لابن عمه معين الرعايا إنه الوحيد الذي يعرف أسرار تلك المرتفعات، فإذا أصغى لوعود الحكومة، فمعنى ذلك نهاية الثائر العنيد، والكشف عن مخابئ السلاح.

ويخفّ ابن العم وهو الآخر خبير بمجاهل گيلوان ليلحق بابن عمه ويبشره بالأمان.. «إن وزير الحرب يقول إن «قصّة الغابة» على وشك الانتهاء، وإنه لا مناص من الاستسلام[3] وينبعث بريق في عيني «معين الرعايا»، بريق يشبه عيني الإسخريوطي في لوحة العشاء الأخير[4].

كان «حسن خان» معين الرعايا يعيش فصلاً مدمّراً من الصراع النفسي، وكانت آلاف الأفكار تتراكض في رأسه كخيول مجنونة.

---

١. «بوران»: العاصفة الثلجية أو المطرية.

٢. عبد الحسين خان ثقفي.

٣. سردار جنگل - ٣٨٧.

٤. غدر يهوذا الإسخريوطي بالسيد المسيح قبل صياح الديكة.

ولم تفلح الرياح الخريفية الباردة في إطفاء لهيب الحمّى في رأسه.

لهذا اكتفى ابن عمه بأن أوصل إليه الرسالة، ويكفي في استجابته أن يتأخّر عن رفيقيه في الطريق.

وفي معركة كهذه، يخسر بعض الرجال أنفسهم، وتبدو الحياة في عينهم جميلة ناعمة..

إن طريق الثورة طريق شائك صعب، طريق مليء بالثلوج والألغام، يدوّى في جنباته أزيز الرصاص..

تكفي إثارة الطموحات.. الأطماع في أعماق البشر في إشعال معركة ضارية تسفر في الغالب عن هزيمة الإنسان أمام غرائز تموج في أعماقه أنّ «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»[1].

وكان طريق كوجك خان هو ذاته الطريق الذي حدد معالمه علي عليه السلام وهو يهتف على شاطئ الفرات بصفين: «الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[2].

هل ورث كوجك خان هذه الكلمات عبر أجيال توارثت المجد العلوي خلال القرون[3]؟!

الرجال الثلاثة يواصلون السير.. يشقون لأنفسهم طريقاً خلال الثلوج وسط طبيعة غاضبة تدفع بالثورة إلى مصير مؤسف.

كان «معين الرعايا» يثاقل إلى الأرض، ونداء الحياة الدنيا يضج في أعماقه

---

١. كلمة مأثورة للإمام علي عليه السلام - نهج البلاغة.

٢. المصدر السابق.

٣. تعني «ميرزا» في الثقافة الإيرانية أن الملقب بها ينحدر من نسل علي عليه السلام من جهة الأم، وميرزا اختصار لـ «أمير زاده»، وهي تعني: ابن أمير المؤمنين.

يحطّم صرح الثورة والكرامة والخلود.

وشيئاً فشيئاً كانت خطواته تبتعد عن خطى كوجك خان، وفيما كانت العاصفة الثلجية تشتدّ كان «معين الرعايا» يخلع لقبه ليعود إلى ذاته الجديدة حسن خان «كيش درأي»[1].

والتفت كوجك خان ليجد رفيقه قد اختفى لقد ضاع أو ضيّع نفسه.

وتاهت السبل على قائد الثورة ورفيقه الوحيد «هوشنگ»، لقد مرّ كوجك خان بظروف مريرة، ولكنّ تشرّده في الجبال المكللة بالثلوج دون دليل وغدر الرفاق قد حطّم ولا شك قلبه المترع بالحزن والمرارة.

نظر بألم إلى رفيقه الغريب؛ إن مأساته الإنسانية كمشرّد لم يجد ملاذاً إلا في قلب كوجك خان لا تقل عن مأساة قائد ثورة الغابة.

ها هي العاصفة الثلجية تزداد جنوناً، وقد بدا غافك أو هوشنگ[2] أكثر إعياءً لم يعد يقوى على السير، انه ينوء بنفسه وسط عاصفة قاسية.

الجوع والبرد والإعياء أسلحة أضافها القدر لإنهاء ثورة الغابة. سقط «هوشنگ» الرفيق الوحيد لكوجك خان في طريقه الصعب باتجاه خلخال[3].

إن طبيعة كوجك خان ومسلكه الأخلاقي لن يسمح له بترك رفيقه وسط الثلوج.. لقد كان بإمكان كوجك خان الذي يتحلّى بلياقة بدنية عالية أن يصل إلى منطقة ما بمفرده والنجاة بنفسه، ولكن ذلك كان يصطدم مع أخلاقه كثائر وإنسان.

---

١. لقبه حسن خان الأصلي: كيش دارأى.

٢. اسم فارسي عريق يرتقي معناه إلى «الفيلسوف» و«الحكيم».

٣. كان هدف كوجك خان الوصول إلى خلخال؛ حيث تتزعم السيدة «عظمت خانم فولادلو» عشائر «شاطر آنلو» التركية.. وعندما سمعت الأميرة التركية بنيّة كوجك خان، جازفت بإرسال عدّة مئات من الفرسان لاستقباله ونجدته، ولكن العواصف الثلجية العاتية حالت دون ذلك. سردار جنگل - ٣٨٨.

حاول أن يساعده على السير، ولكن دون جدوى، وشيئاً فشيئاً كان البرد يتسلل إلى كل خلية من خلايا جسده، كل الخلايا جنحت إلى النوم، وأصبح نبضه بطيئاً جداً.. البرد يدعوه إلى النوم..

وحدها الذكريات كانت تتوهج في اشتعال وانطفاء كبروق سماوية.

مشهد من كربلاء

لا شيء سوى الثلوج وقد غمرت المعالم والطرق في تلك المعابر الوعرة في مرتفعات «گيلوان».

لا شيء سوى زمهرير العاصفة وهي تسفي الثلوج..

لا شيء في تلك البقعة من دنيا الله حيث هوى كوجك خان وسط الثلوج.. وإلى جانبه رجل دفعته أقدار من أرض بعيدة..

من بعيد لاح رجل قادم من خلخال يريد گيلان، كان يحث السير قبل أن تتراكم الثلوج في المعابر وتسد الطريق الجبلي الوحيد.

رأى المسافر سواداً وسط الثلوج الناصعة، وصوّر له الخوف أن ما يراه ليس سوى حيوانات مفترسة، فاختبأ وراء كومة ثلج وراح يراقب، ولكن شيئاً لم يبدر من السواد ولا أية حركة!

ودفعه حب الاستطلاع إلى الاقتراب أكثر فاكثر، فاذا هو أمام شخصين طوحت بهما العواصف والأيام.

تأمل في وجه أحدهما، فبدا له أنه يعرفه!

أجل.. إنه ميرزا.. ميرزا كوجك خان المجاهد الذي اقترن اسمه بالنبل والبطولة والجهاد.

احتضنه، فرك بدنه المتجمد لعلّه يعيد إلى جسمه قدراً من الدفء.. أسقط

في فمه حبّات «سنجد» ولكن لا فائدة.. لقد رحلت الروح إلى بارئها.

وخف الرجل المسافر إلى القرية القريبة «خانقاه» كان في قلبه بقيا أمل.. أو خُيّل إليه أنه يسمع نبضات واهنة تخفق في صدر ميرزا.

وهبّ رجال القرية رغم عنف العاصفة إلى نجدة الرجل الوحيد..

ولم تمض سوى ساعة حتى كان الجسدان يتمددان في وسط القرية.

كان أهل القرية يستعدون لإجراء مراسم دفن «الثورة» عندما دهمهم مائة فارس مسلح كانوا يجوبون الجبال بحثاً عن الشريد.

وأصدر قائد الفرسان، وقد ملأ قلبه الحقد، أمره إلى أحد رجاله أن يحتز رأس الثائر.

وتقدّم رجل يحمل ملامح «الشمر»[1] ليستل سكينه ويذبح الثائر من الوريد إلى الوريد وتساقطت قطرات حمراء.. حمراء بلون ورود الـ «لاله»[2].

ويعتقد بعضهم أن كوجك خان كان به رمق من الحياة بدليل قطرات الدماء المتساقطة.

وحمل الرأس.. رأس الثورة إلى مدينة رشت ليعلق أمام أبناء گيلان لتحطيم روح الثورة في نفوسهم.

إن اللحظة التي علق فيها رأس الثائر الشهيد هي لحظةٌ تراجع فيها الإسلام المقاتل أمام الظاهرة الاستعمارية.

كما فعل طغاة الأمويين مع رأس الحسين فَعَل الأوغاد مع كوجك خان.. مشاهد تنتقل من كربلاء جعلت الناس يقارنون بين ما فعله الأمويون وما يفعله

---

١. اسمه رضا اسكستاني. سردار جنگل - ٣٩٠.

٢. تقول الأسطورة الإيرانية: إن شقائق «لالة» الحمراء إنما نبتت من دماء الشهداء، و«لالة» هي شقائق النعمان، وهناك أنواع منها تظهر عادة في الربيع في الصحاري والجبال وفي المناطق الرطبة، وأصبحت رمزاً للشهداء في إيران.

القاجار.

وانبعثت من جديد تلك الشائعات التي تحدّثت في زمن «المشروطة» حول انتساب القاجار للأمويين وتوارثهم السيف الذي ذبح به الحسين[1].

وفي عملية تفتيش للجسد المسجّى، لم يعثر قائد الفرسان على شيء سوى عملة صغيرة «قران» وختم يحمل اسم «كوجك جنگلي».

وفي خطوة لتملق رضا خان، قام خالو قربان الذي كان يقاتل ذات يوم تحت لواء كوجك خان، قام بحمل الرأس إلى طهران ليقدمه هديّة إلى وزير الحرب الذي رمقه باحتقار ثم ليمنحه رتبة عقيد[2]!

دفن الجسد في قرية «خانقاه» بين گيلان وخلخال.

فيما دفن الرأس في مقبرة في طهران.

ويقوم أحد أنصار الثائر بحمل الرأس سرّاً ليدفنه في محلّة «سليمان داراب» حيث أمضى الثائر سنين من حياته الثورية هناك مختبئاً في بيوتها عندما كانت تقسو الأيام.

وبعد عشرين سنة؛ أي في عام ١٩٤١، يقوم أحرار گيلان بنقل الجسد من قرية «خانقاه» ليلحقوه بالرأس بالرغم من إجراءات حكومية حاولت الحؤول دون ذلك.

---

١. أشيع إبان حركة المشروطة «الحركة الدستورية» ١٩٠٦ «بأن القاجار كانوا منخرطين في الجيش الأموي.. وقيل أن الخنجر الذي استخدم لقطع رأس الحسين موجود في حوزة حاكم طهران علاء الدولة».
إيران من الداخل - ٦٩.

٢. سردار جنگل - ٣٩١. وقد عنّف «علي أكبر خان سنجابي»، وهو من الشخصيات الكردية، «خالو قربان» عندما التقاه في أحد شوارع طهران «ناصر خسرو» أمام جمع من الأكراد قائلاً له: لقد لطّخت الجبين الكردي بالعار، وهو يشير بذلك إلى تقديمه رأس ميرزا كوجك خان «وليّ نعمتك» إلى العدو؟!

وهكذا؛ هوى الثائر فوق الثلوج وسط العاصفة المزمجرة.. في الثاني من كانون الأول ١٩٢١ الثاني من ذي القعدة ١٣٤٠، وفي كل عام يتذكر الشعب الإيراني هذه الفاجعة التي وقعت في ١١ آذر ١٣٠٠هـ.ش.

لقد دخل كوجك خان ضمير الأجيال كثائر وإنسان، أما الذين غدروا به وطعنوه، فقد ضاعوا في التاريخ وسقطوا من الذاكرة.

ما تزال غابات الشمال خضراء.. خضراء.. ما يزال المطر ينهمر بغزارة.. وما تزال الرعود تدوّي.. والبروق تضيء ليل الغابات.

ومنذ اللحظة التي هوى فيها الثائر..
كانت السماء مثقلة بالغيوم.
الغابة منطفئة.. ووحيدة.
وأشجار السرو والصنوبر صامتة.
وليل الغابة مثقل بالبرد.. والحزن.. والصقيع.
وحدها البروق والرعود تدوّي.
تكسر حاجز الصمت.
تُذكّر بالثورة التي اشتعلت في الغابات يوما ما..
ثم انطفأت

١ - صفر - ١٤١٩
٢٧ - آيار - ١٩٩٨

الثورة في صور

الشهيد ميرزا كوجك خان

كوجك خان قبل سفره إلى لنكران

في زيّه الذي لم يفارقه طوال عمر الثورة

رأس الثائر الشهيد.. وهج من كربلاء

منزل كوجك خان في ماسوله قضى فيه الشهيد أعواماً من عمره

رخامة المرقد: لبّى كوجك خان نداء الإسلام، وحوّل صوت المقهورين في إيران إلى رصاص من أجل أن يسمع العالم!

صدر لمؤسسة كلمات للطباعة والنشر

سلسلة في ظلال الزيتونة:

٠. في ظلال الزيتونة، رواية حول المعصومين عليهم السلام
١. اسمه أحمد، رواية حول النبي محمد صلى الله عليه وآله
٢. إلا علي، رواية حول الإمام علي عليه السلام
٣. دموع السماوات، رواية حول الإمام علي عليه السلام
٤. فاطمة حورية الأرض، رواية حول فاطمة الزهراء عليها السلام
٥. وكانت صديقة، رواية حول فاطمة الزهراء عليها السلام
٦. عاصفة السلام، رواية حول الإمام الحسن عليه السلام
٧. ألم ذلك الحسين، رواية حول الإمام الحسين عليه السلام
٨. أطول يوم في التاريخ، رواية حول الإمام الحسين عليه السلام
٩. الثورة امرأة، رواية حول السيدة زينب عليها السلام
١٠. وسلاحه البكاء، رواية حول الإمام السجاد عليه السلام
١١. عليه السلام، رواية حول الإمام الباقر عليه السلام
١٢. جعفر أيها الصديق، رواية حول الإمام الصادق عليه السلام
١٣. على جسر بغداد، رواية حول الإمام الكاظم عليه السلام
١٤. الطريق إلى خراسان، رواية حول الإمام الرضا عليه السلام
١٥. وكان تقياً، رواية حول الإمام الجواد عليه السلام
١٦. تراتيل في زمن الذئاب، رواية حول الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام
١٧. فارس الزمن الغائب، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
١٨. بانتظار الذي يأتي، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
١٩. الشمس وراء السحب، رواية حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
٢٠. نهاية التاريخ

سلسلة شهداء العراق:

١. عواطف وأمل، رواية حول الشهيدتين عواطف الحمداني وأمل الربيعي

٢. السماء تفتح أبوابها في المساء، رواية حول الشهيدة فاطمة الحسيني
٣. سمراء الجنوب، رواية حول الشهيد سميرة عودة المنصوري

كتب متنوعة:

١. النفس في قفص الاتهام
٢. الإمام الخميني قوة الحق
٣. الشمس وحديث المرايا، إضاءات على حياة الإمام الخامنئي
٤. قمر الحسين، رواية حول أبا الفضل العباس عليه السلام
٥. ويكتب وصيته الأخيرة، رواية قصيرة حول الشهيد قاسم سليماني
٦. الفدائي، أضواء على سيرة وحياة الشهيد نواب صفوي
٧. سيد غابات الشمال، الشهيد ميرزا كوجك خان **(هذا الكتاب)**

مجموع الإصدارات = ٣٠

يعود ميرزا كوجك خان إلى طهران بعد أن التأمت جراحه في الحركة الدستورية؛ يعتصر الألم قلبه الكبير لما يشهد من تجاوزات الحكم، ولما يراه من عدوان على القيم الإنسانية والإسلامية.
ثم تأتي المجاعة لتزيد الأشياء ظلامية، وتبعث في النفس شعوراً بالإحباط أو الغضب.. الهزيمة أو الثورة.. إنه التحدّي الذي يغوص في أعماق البشر.. وهناك وفي لحظة مصيرية يتجلّى الإنسان وتتبلور معادلته، فاذا هو مهزوم أو ثائر، خانع أو شهيد.

كلمات
9 786144 642832